نجيب محفوظ



رواية مجهولة
وتجربة فريدة

حسين عيد

الدار المصرية اللبنانية

نجيب محفوظ

رواية مجهولة ، وتجربة فريدة



16 شارع عبد الخالق ثروت - ص. ب 2022 برقيا دارشادو - القاهرة - ت : 3936743-3923525 - فاكس : 3909618

رقم الإيداع : 322 17 / 2001

الترقيم الدولي : 9-698-270-977

تجهيزات فنية : النصر ت : 7863199

طبع : آمون ت : 7944517 - 7944356

الطبعة الأولى : شوال 1422هـ / 2002م

نجيب محفوظ

رواية مجهولة، وتجربة فريدة

حسين عيد

الدار المصرية اللبنانية


بسم الله الرحمن الرحيم

اكتشاف رواية مجهولة

تربط المخرج السينمائى الكبير على بدرخان علاقة عمل و صداقة مع شـيخنا الكبير نجيب محفوظ ، بعد أن أخرج ثلاثة من أهم أفلامه السينمائية عـن أعمـال أدبية لـه ، هى :

فيلم « الكرنك » (١٩٧٥) عن رواية « الكرنك » .

فيلم « أهل القمة » (١٩٨١) عن قصة بذات العنوان .

فيلم « الجوع » (١٩٨٦) عن رواية « الحرافيش » .

كما تربطنى علاقة حميمة بالفنان الكبير على بدر خان ، فهو قارئ نهم لـلأدب ويتمـتع بذائقة عالية نادرة ، وكثيرا ما كنا نقضى ساعات طوالاً فى مناقشـات حماسـية لأعمـال أدبية بعينها ، لذلك كنت أحرص على أن أهديـه نسخة من كل كتاب جديد يصدر لى . **وحين أهديته نسخة من كـتابين نشـرا لى فى خلال عام ١٩٩٧ – وهما « نجيب محفوظ : سيرة ذاتية وأدبيـة » و « رحـلة الموت فى أدب نجيب محفوظ »** – لعلهما أكدا له أنى أشـاركه الإعجـاب بكاتبنا الكبير نجيب محفوظ ، فتح لى مخزون أسراره ، **ونـاولنى صورة ضوئية من رواية « ما وراء العشق » بخط يد نجيب محفوظ ،** سبق أن قـدمها له شيخنا الكبير فى فترة ماضية ، على أمل الاسـتفادة منها سـينمائيًّا ، فشكرتُ له حسـن صنيعـه ، شـاعرًا أنى عثرتُ على كنـز حقيقى لا يقدر بثمن !

***

كان العثور على نسخة مخطوطة من رواية «ما وراء العشق » (اكتشافًا) لرواية (مجهولة) لم تنشر من قبل ضمن أعمال نجيب محفوظ المعروفة ..

فلماذا لم يدفع بها نجيب محفوظ إلى النشر ؟!

عدم رضا نهائى

قرأتُ رواية « ما وراء العشق » فى ذات الليلة ، فخيل إلىّ أننى سبق أن قرأت أصداءً مّا مشابهة لها فى زمن مضى .

وتذكرتُ أن نجيب محفوظ جاء على ذكرها (مرة) فى كتاب « **نجيب محفوظ يتذكر** » **لجمال الغيطانى** – الذى صدرت طبعته الأولى عن دار المسيرة ببيروت فى عام ١٩٨٠ ـ وذلك حين قال :

« إننى أقرأ العمل بعد أن أعيد كتابته . بعد التبييض أنتظر فترة ، ثم أعيد قراءته ، وفى جميع الحالات أشعر بعدم الرضا .. أشعر بالفرق بين التصور المبدئى وبين ما أنتجتُهُ فعلاً .. بين الطموح وبين ما تحقق ، ولكنه عدم رضا لا يؤدى إلى إلغاء ما كتبتُهُ . المرة الوحيدة التى اضطررت فيها إلى إلغاء عمل كتبته حدثت بعد انتهائى من رواية « ما وراء العشق » ، وقد كتبتها خلال السنوات الأخيرة .. بعد انتهائى منها شعرتُ بعدم رضا نهائى . من الصعب أن أقول لك ما الذى أثار ضيقى منها ، كنت مطمئنًا إلى القسم الأول منها ، لكن القسم الثانى أشعرنى بعدم ارتياح ، ولكن هذا نوع مختلف عن عدم الارتياح الذى ينتج بسبب ما كان فى خيالك وما تحقق بالفعل . لقد كان لَدَىَّ ثلاث روايات : «أفـراح القبة» و «ليالى ألف ليلة » وتلك الرواية ، دفعت بالروايتين الأوليين

إلى النشـــر ، واحتجزت « ما وراء العشق » إلى السنة القادمة كى أعيد فيها النظر .. » .

***

أضاءت كلمات نجيب محفوظ عدة نقاط مهمة :

- كشف نجيب محفوظ ، ربما للمرة الأولى ، أن له رواية (مجهولة) لم يعرفها القراء من قبل ، بعنوان « ما وراء العشق » .

- أنجز نجيب محفوظ ثلاث روايات : « أفراح القبة » ، « ليالى ألف ليلة » ، و « مـــا وراء العشق » ، وذلك خلال السنوات الأخيرة السابقة لتاريخ إجراء الحوار مع جمال الغيطانى ، الذى نُشر فى كتاب عام ١٩٨٠ .

- اعـــتاد نجيب محفوظ أن يقوم بمرحلة (التبييض) ، أى إعادة كتابة ما انتهى من إنجازه ، كما اعتاد أن يعيد قراءة تلك الأعمال المُنْجَزَة ، بعد انقضاء فـــترة مـــن مرحلة التبييض .. وفى جميع الحـــالات ، كان يشعر (بعدم الرضا) ، لأنه كان يشعر بالفرق بين التصور المبدئى وما أنتجه فعلاً .. بـــين ما كان فى خياله وما تحقق .. بين الطموح وما نتج . وهو شعور يـــتفهمه كفـــنان كبير مستوعب لدقائق عملية الإبداع وما يعتريها من تحولات .

- لذلـــك دفـــع الروايتين الأوليين إلى النشر ، وهو ما حدث فعلا حين نشر رواية « أفراح القبة » فى عام ١٩٨١ ، ورواية «ليالى ألف ليلة» فى عام ١٩٨٢ ، وهـــو ما تظهره « قائمة مؤلفات نجيب محفوظ » الصادرة عن (مكتبة مصر) ناشره الوحيد ، والتى ترد فى نهاية أى كتاب من مؤلفاته .

• أرجع نجيب محفوظ مبرر عدم الدفع برواية « ما وراء العشق » إلى النشر إلى شعوره (بعدم رضا نهائى) عنها ، وكانت تلك هى المرة الوحيدة التى (اضطر) فيها إلى (إلغاء) عمل كتبه . وهو وإن أعطى (رأيًا) أوليًّا سريعًا بأنه كان مطمئنًّا إلى القسم الأول منها ، وأن القسم الثانى أشعره بعدم ارتياح ، إلا إنه كان حاسمًا واضحًا فى احتجازها إلى السنة القادمة (١٩٨١) كى يعيد النظر فيها ..

كيف قام نجيب محفوظ بإعادة النظر فى رواية « ما وراء العشق » ؟!

وكيف كان الناتج الجديد ؟

وما هو عنوانه ؟!

***

معالجة جديدة

لم يكن هناك مفر من تتبع الآثار التى أشار إليها نجيب محفوظ ، حتى نتوصل إلى الإجابة المنشودة ..

كان نجيب محفوظ قد نشر فعلا رواية « أفراح القبة » فى عام ١٩٨١ ، ورواية « ليالى ألف ليلة » فى عام ١٩٨٢ .

ولأن نجيب محفوظ يحترم (تنظيم الوقت) ويلتزم به ، وحين أعلن أنه احتجز رواية « ما وراء العشق » إلى السنة التالية (١٩٨١) كى يعيد النظر فيها ، فلابد أنه فعل ، ومن ثم يصبح من الضرورى الرجوع إلى أعماله التى نشرها عقب روايتيه السابقتين ، والبحث فيها . **فإذا بالعمل التالى ، الذى نشره فى ذات عام ١٩٨٢ عن « مكتبة مصر » ، هو مجموعة قصصية بعنوان**

« رأيـــت فـــيما يرى النائم » . وحين قرأتُ أول قصة فيها – وكانت بعنوان « أهـــل الهوى » – وجدتُ فيها ضالتى المنشودة ، ولعلّ الأصداء التى شعرتُ بهـــا عـــند قراءتى لرواية « ما وراء العشق » كان مبعثها قراءتى السابقة لهذه القصة . فقد كانت قصة « أهل الهوى » معالجة فنية جديدة لرواية « ما وراء العشـــق » ، أو ثمرة طازجة عذبة لعملية إبداعية جديدة ، بعد أن أعاد نجيب محفوظ النظر فيها .

مولد هذا الكتاب

عندئذٍ انفتح أمامى باب (سحرى) ، فرأيت (تجربة إبداعية فريدة) ، وجه التفرد فيها ، أنها لم تبدأ من تصور مبدئى أو تخيل غير محسوس ، بل بدأت من ناتج مادى ملموس ، هو رواية « ما وراء العشق » ، وانتهت إلى مولود متميز هو قصة « أهل الهوى » ، بحيث يمكن أن نتعرف على جوانب التحولات التى جـــرت خلال عملية الإبداع تلك ، وكأنها تحدث تحت أبصارنا ، والتى لم يكن متاحًا لنا أن نعرفها من قبل إلا من خلال أحاديث بعض المبدعين عنها !

واحتشـــدتُ لأنقل ما وصلنى من هذه (التجربة الفريدة) إلى القارئ العزيز ، وذلك بتقسيم هذا الكتاب إلى بابين .. خصصتُ الباب الأول لرواية « مـــا وراء العشق » ، التى تناولتها بالتحليل فى الفصل الأول ، واجتهدتُ فى تحـــليل أســـباب عدم رضا نجيب محفوظ النهائى عنها فى الفصل الثانى . أمـــا الـــباب الـــثانى فقـــد خصصتُه لإبداع قصة « أهل الهوى » ، قدمتُ فى الفصـــل الأول مـــنه تحليلاً لجوانب هذه التجربة الفريدة ، وصولاً – عبر الفصـــل الـــثانى – إلى كيف تخلقت قصة « أهل الهوى » من خلال عملية (الـــتهذيب) الـــتى تمـــت . وتضمن (ملحق) الكتاب بعضَ صفحات رواية

« مـــا وراء العشـــق » بخط يد نجيب محفوظ ، احترامًا وتقديرًا لرغبة نجيب محفوظ فى استبعاد تلك الرواية من بين أعماله وإلغائها .

* * *

وفى الخـــتام ، أتعشم أن يقدم هذا الكتاب للقارئ العادى ولأجيـــالنا من الكُتّاب ، نموذجًا عمليًا للفنان نجيب محفوظ حين يتواضع أمام أعماله التى يبدعها ، وحين يكون حاسمًا باترًا عندما يَجدُّ الجدّ ، لأن الفن قضية حياة ، لا نملك أمامه إلا العمل الشاق ، ولنا فى شيخنا الكبير نجيب محفوظ - أطال الله عمره - أسوة حسنة .

وعلى الله التوفيق ،،،

حسين عيد

(ميت عقبة - ديسمبر ٢٠٠٠)

الباب الأول

رواية « ما وراء العشق »

الفصل الأول : رواية شخصية .

(١) الوجه الأول .

(٢) الوجه الثانى .

(٣) الوجه الثالث .

الفصل الثانى : تعليل عدم الرضا النهائى .

(١) الجنوح بعيدًا عن عالم الحارة الأثير .

(٢) بناء الرواية .

(٣) رسم الشخصيات .

الفصل الأول

رواية شخصية

هـــذه رواية خاصة بالشخصية . مركز الثقل فيها هو (الشخصية) بكل ما يحيط بها من أسئلة :

- كيف تتكون (الشخصية) ؟
- كيف تؤثر شخصية (قوية) فى الواقع المحيط بها ؟
- كيـــف تتأثر شخصية (عادية) مع مرور الزمن بالأحداث الخارجية ، وسوء الحظ ؟!
- مـــاذا يحـــدث إذا (تحوّلت) شخصية فردٍ مّا ، واختفى تمامًا الجزء الظاهر المعروف منها ؟!
- كيف ستكون شخصيته (الجديدة) ، فى الواقع الجديد ؟!
- كيف (يتصرف) وسط ذلك الواقع ؟!
- ماذا عن (ماضيه) وشخصيته السابقة ؟!
- كيف سيكون (مصيره) ؟!

أســئلة (كثيرة) ولاشك . ولعلّ بعضها قد راود تفكير أستاذنا نجيب محفوظ فى نهاية حقبة السبعينيات ، وهى الفترة التى من المحتمل أنه كتب رواية

« ما وراء العشق » فيها ، كما سبق أن أوضحنا ، وهو يرى تيارات سياسة الانفـــتاح الاقتصـــادى وقد اجتاحت المجتمع المصرى كالإعصار ، فزعزعت أركانه ، وأحدثت تحولات جسيمة فيه ، سرعان ما امتد تأثيرها إلى الأفراد ، وانعكس على (شخصياتهم) ..

ولعلّ بعضَ تلك الأسئلة قد ازداد إلحاحها عليه ، وأمسك بخناقه ، حتى تحولـــت بمضـــى الوقـــت إلى (محفز) قوى ، يدفعه إلى الاقتراب من هذا (الموضـــوع) ، ومحاولـــة إضاءة ما خفى من أركانه ، وربما - تبعًا لذلك - تولـــدت لديه رغبة قوية لكتابة (رواية) حوله ، وهو ما تحقق بعد ذلك حين أنجز رواية « ما وراء العشق » !

تـــتكون رواية « ما وراء العشق » من ثلاث لوحات، أو (ثلاثة أوجه). تقـــف فى خلفية كل لوحة (شخصية) قوية ، مهيمنة ، مسيطرة ، تمتد سطوتها وتأثيرهـــا ليشمل المكان كله . هناك شخصيات (مستقرة) مساعدة يطولها هذا الـــتأثير الطـــاغى ، كما ينعكس عليها تأثير الواقع المحيط ومفاهيمه السائدة ، وأحـــداث الحياة فيه . ويتصدر مقدمة اللوحة (شخصيتان) شابتان ، إحداهما الشخصية (الرئيسية) ، والثانية حبيبته .

تظهـــر الشخصـــية الرئيسية فى اللوحة الأولى بوجهها (الأول) الطبيعى، وفى الـــلوحة الثانية بالوجه (الثانى) المقابل، بعد أن فقدت تمامًا وجهها الأول. وفى الـــلوحة الثالـــثة ، تعرف الشخصية الرئيسية بحقيقة (ماضيها) ، ويتداخل عالميْها : الجديد والقديم !

(١) الوجه الأول

تبدأ أحداث الرواية فى (قرية) الربيعية ، إحدى قرى صعيد مصر . وتأمل نجيب محفوظ وهو يعرّفنا بها فى (مفتتح) الرواية ، فإذا هو يقدم معها ، فى ذات الوقت ، شخصية السيد ربيع عبد الدائم صاحب القرية وصانعها .. تلك (الشخصية) القوية الرابضة فى خلفية اللوحة . وفى ختام هذا المفتتح يقدّم شخصية الرواية (الرئيسية) إسماعيل محسن الغمرى :

« الربيعية قرية فريدة المنشأ والتكوين فى القرى . قديمة يمتد عمرها فى التاريخ عشرة آلاف سنة ، جديدة فتية لم يتجاوز عمرها الجديد نصف قرن من الزمان . صاحبها فريد أيضا فى الرجال ، خرق المألوف من تفكير كبار الملاك ، فخلقها خلقًا جديدًا فى صورة قرية نموذجية ، فاستوت لؤلؤة بين قرى جرجا العتيقة .. بيوتها انسيابية متناسقة يزين مداخلها النخيل ، طرقاتها واضحة المعالم ممهدة الأديم ونظيفة . أما بيوت التفتيش فقد قدّت من الأحجار البيضاء والحمراء كبيوت البندر ، وسراى آل عبد الدايم تنبسط غير بعيدة عن مساكنها . إلى ذلك ازينت القرية بالجامع والكنيسة والكُتّاب والمدرسة الابتدائية والوحدة الصحية ، ومكتبة شبه مستقلة ملحقة بالمدرسة ومفتوحة للواردين طوال العام . أنشئ ذلك كله بمال المالك الكبير السيد ربيع عبد الدايم . وقبل غيرها من القرى سبقت إلى امتلاك خزان للمياه النقية والتعامل مع مبيدات الذباب والناموس . عرف إسماعيل محسن الغمرى سجايا المالك الكبير أول ما عرفها فى بيته عن أبيه وأمه ، ثم – لما شبّ – وجدها منتشرة كالشذا الطيب فى جميع أنحاء القرية » (انظر الملحق) .

يمثل هذا المفتتح الفصل رقم (١) من فصـــول الرواية ، التى تتكون من (٥٢) فصـــلاً ، حيـــث تبدو فيه قرية الربيعية كمسرح كبير ، يملؤه وجود شخصية المالك الكبير ربيع عبدالدايم ، الذى يتغلغل بين أركان تلك المملكة الصـــغيرة ، إلى داخـــل البيوت ، لينشأ بطل الرواية ويتربى على سماع الأب والأم وهمـــا يشيدان بمكارمه ، حتى إذا ما كبر وخرج إلى القرية ، وجد هذا الشذا الطيب منتشرًا فى جميع أنحائها .

تتوالى تفاصيل أخرى عن السيد ربيع من إحدى الشخصيات المستقرة المساعدة ، وهو الأب محسن الغمرى ، الذى عمل كاتبا فى تفتيش المالك .. ولأنـــه عرفه عن قرب ، فهو دائم الإشادة بمناقبه والتغنى بتاريخه الذى لا يملّ تكـــراره عـــلى مسامع ابنه : قبل الثورة كانت السياسة قد احتجزته معظم الوقـــت فى القاهرة ، وحين قامت الثورة ألغى نشاطه الزائد إيثارًا للتفاهم ، وقد راعت الثورة تاريخه ، فلم تعامله كسائر الإقطاعيين ، وبرغم أنها حددت ملكيـــته بمائـــة فدان طبقا لقانون الإصلاح الزراعى ، إلاّ إنها اختارته عضوا فى لجنة الدستور ، وحين شمله قرار العزل السياسى ؛ زاره مندوب على سبيل الترضية . « **والسيد من أول يوم أيّد الثورة ، بل أعلن حماسه لفكرة الإصلاح الـــزراعى ، والآخـــرون يتكتـــلون لمقاومته ، وشهدت مآثره السابقة بصدقه وإخلاصـــه حتى استحق بجدارة وصف « الإقطاعى الثورى » . وعايش الثورة فـــلم يـــند عنه سلوك مريب أو كلمة ســـوء . كان – وما زال – من عشاق القِيَم ، لا يطيق الفقر أو الجهل أو المرض . حقًّا كان غنيًّا، ولكنه لم يكن عبدًا للثروة أبدًا، وكان أسيرًا للقيم** » (انظر الملحق) .

وحـــين انتهى عهد التفتيش ، اكتفى بوكيله الشيخ إبراهيم الجرجاوى وخفـــير أو خفيرين ، وأجرى على العاملين لديه معاشًا بلا إلزام من قانون ،

بـرغم معارضة أبنائه - ومنهم القاضى والطبيب والمهندس - الذين كرهوا كـرمه وإحسـانه وحماسه ، لكنّه أدَّبهم بحزمه وخُلُقه ، حين قال لهم : **« مـنكم القاضى والطبيب والمهندس ، أغناكم الله من فضله ، ولن أتخلى عن رجال قضوا العمر فى خدمتى ، والحياة نعمة لم يهبها لنا الله لنرتكب الجرائم »** .

وبـرغم أنه كان قديمًا يتفقد كل شىء بنفسه ، فقد انتهى به الأمر إلى التـبرع بسراياه للمنفعة العامة ، منسحبًا إلى مسكن صغير أنيق منعزل وسط الحقول ، عاش فيه مع حرمه . حتى صـلاة الجمعة التى كان من عادته فيما مضى ، كلما أتيحت له الفرصة ، أن يؤم المصلين فيها ويلقى خطبة الجمعة ، كـفّ عنها تجنبًا لما يثير من ظنون ، وإن ظل يملى الخطبة ليلقيها الإمام نيابة عنه .

تتكون بقية الشخصيات المستقرة المساعدة من : أم إسماعيل ، التى أنجبته وهـى فى الأربعين من عمرها بعد طول عقم ، وهى شخصية طيبة ، توافق زوجها فيما يسرده حول السيد ؛ لأنها سبق وعايشت تلك الأحداث . هناك أيضًـا جيران أسرة الغمرى : الأب فاضل المهند كاتب التفتيش رفيق محسن الغمـرى والسـيدة زوجته . وهناك إحسان ابنتهما ، آخر العنقود بعد أن تـزوجت أخواتهـا ، كشخصية متفرّدة ، متوازية مع شـخصية إسماعيل ، وكانا فى سن واحدة ، تزاملا فى الكُتّاب ، انفصلا فى المدرسة ، نمت بينهما علاقة حب ، **« لكنها كانت أكثر منه واقعية ، كأخواتها المتزوجات فى القرى . توصف بالعقل ، ولكنها كانت عميقة العاطفة ، شديدة الطموح ، عزمت على أن تفيد من زمانها وأن تتم تعليمها .. ولم يخذلها الذكاء ، ولا العزيمة القوية »** .

ويــبقى مـــن الشخصـــيات المســـتقرة المساعدة : همّام حامد ، رفيق صبا إسماعيل وزميل دراسته ، وهو يمثل الوجه (المقابل) الناقم على السيد ربيع عبد الدايم ، والذى لا يعترف بأفضاله ، بل يُؤَوِّلها بالنقيض .

تـــلك هـــى أهـــم ملامح شخصيات اللوحة الأولى ، أو الوجه الأول من الرواية ، وإسماعيل ماضٍ فى طريقه ليســـتكمل تعليمه الجامعى ، ويتزوج من محبوبته إحسان ، وقد مال قلبه إلى تقديس العدالة ، ونفر من الاستغلال والمســـتغلين ، وآمن بأن الحياة هى الثورة ، وأن الثورة هى الحياة . وإحسان أيضًا ماضية فى طريقها ، تستكمل تعليمها، حالمة بغد مشرق مترع بالسعادة. وهمـــا ، بهذا الشكل ، شخصيتان خَيِّرَتان ، تُعتبران نتاجًا طبيعيًا لمجتمع صغير خَيِّر ، يظلله الحب ، وتعمّه السعادة !

مـــا هـــى الأحداث أو الوقائع التى يمكن أن تؤثر أو تغير مسار حياتهما المرسوم ؟!

ثلاثـــة أحـــداث متـــتابعة حاسمة وقعت . أولها : تَقَدُّم على القرنى – الموظف بالوحدة الصحية – وطلب يد إحسان ، وهو موظف محترم يكبرها بخمـــسة عشر عامًا ، وقادر على فتح بيت .. فرأى أبوها فيه مشروعًا عمليًا مناســـبًا ، وفاتح محسن الغمرى بأن العُرف جرى أن يكبر الزوجُ الزوجة ، فاقتنع الأب .. لكنّ إسماعيل لم يقتنع ورفض الأمر ، وسرعان ما عدل فاضل المهند عن رأيه ، « **ولعله وجد من كريمته معارضة كذلك** » . وكان إسماعيل يروم أن يجد فى زواج سريع مخرجًا من صراعاته الجنسية ، لكنها واجهته ذات مرة هامسةً : « **لا فائدة من الأحلام** » .. إذ ليس لأمثاله إلاّ الطريق الطويل الشاق !

أمـا الحـدث الثانى فكان رهيبًا ، حيث اختلف فاضل المهند مع أحد الـباعة فى السـوق ، فـثار غضبهما وتبادلا الضربات ، غير أن قدم المهند أصابت من خصمه مقتلاً فصرعته وانتهت حياته إلى السـجن ، وهزّ أسرته القـتل والسجن كزلزال ، مخلفًا الحزن والعار ، لكن الحادث « **كشـف عن معدن إسماعيل الحقيقى ورجولته . عرف من نفسه أنه لا يتخاذل فى الملمات ، وأنـه يتحدى الرأى العام ولو وقف وحده** » . وزار أسرة إحسان ، وقال لها : « **لا تستسلمى للحزن ، استردى نظرتك الأبيَّة ، علينا أن نكون أقوى من أى مصيبة ..** » .

وأصـاب الحدث الثالث أسرة إسماعيل ، حين مات محسن الغمرى بعد أن جاوز السبعين بأربعة أعوام ، وترتب علـى ذلك أن أصبح الفتى مُطالبًا مـنذ ذلـك اليوم بالاعتماد على نفسه ، بعد أن يحصل على الثانوية العامة فى نهاية العام ، وأن يعمل بها حتى يعيل أمه ، « **وأن يستكمل بعد ذلك تعليمه لـيحقق أهدافـه ، لا يجوز أن ينقشع الحلم الكبير عن لا شىء ، أو عن شىء لا يؤبه له . لن يفرط فى حلمه ، وهو أن يحقق ذاته ليقدم بعد ذلك للناس خدمة جديرة بمبادئه وتمنياته السامية** » . وأخبر إحسان بنواياه ، وأنه سيأخذ توصية مـن السيد ربيع عبد الدائم حتى يعمل بالقاهرة ، فشجعته بأنها ستفعل مثله بعـد أن تحصـل عـلى الثانوية العامة فى العام المقبل ، وستمضى إلى بيت خالتـها فى برجوان بالقاهرة . ونال فعلاً توصية من السيد ربيع إلى حسنى أبو الفـدا رئيس شـركة الصناعات الغـذائية ، كما يَسَّر له سبيل الإقامة بالاتصـال بأحد معارفه ، وهو الشيخ حليم الطنطاوى إمام مسجد الزينى . ومضى يعد مسوغات التعيين . وفى المدرسة وجد مناخًا عدائيًّا ، ربمّا لدفاعه الدائم عن السيد ربيع ؛ لأن زملاءه كانوا يعتبرونه ليس منهم . وهناك قابله

همـــام حـــامد ، ودارت بينهما على مرأى من الآخرين مناقشة حول مقابلة السـيد ربيع له برغم أنه لا يقابل أحدًا ، وألمح إلى أنه يعامله كابنه ؛ مما أثار ضـحك الآخـرين ، فانصـرف غاضبًا ، وسرعان ما لحق به همام حامد ، وأفضى له كصديق بسرّ، بأن هناك شائعة مفادها أن السيد هو أبوه الحقيقى؛ فعاد إلى منـزله مصدومًا ، لكنه سرعان ما استبعد الاتهام بالمنطق ، باعتبار أنها فَرِيَّة أفرزتها نفسٌ مليئة بالحقد والحسد . وقابل إحسان قبل أن يغادر إلى القاهـرة ، فوجـدا فى الحب عزاءً ؛ فـ « **كلاهما ضحية لسوء الحظ وسوء السمعة معًا** » !

هكذا حَوَّل حَدَث (الموت) مسـار حياة إسـماعيل محسن من المُسْتَقَرّ الهـانئ فى القرية ، إلى الانتقال إلى القاهرة الصاخبة ، حيث قابل الشـيخ حليم الطنطاوى ، الذى أكرم ضيافته لأنه من طرف أعزّ الناس ، ودعاه إلى الإقامة معه لخلوّ الدار بسبب سفر الأبناء الثلاثة للعمل بالخليج . وفى الصباح قـابلا رئيس شركة الصناعات الغذائية ، الذى استقبلهما بحفاوة بعد أن قرأ خطـاب التوصـية ، وأخبره بالعودة فى يوم السبت القادم ومعه مسوغات التعيين .

وفى المســاء ، حـرّر أول رسـالة متفائلة مستبشرة لإحسـان ، و « **فى الظلام راح يحلم بإصلاح العالم . ما من شىء إلا ويجب خلقه من جديد. ما يجوز لمثله أن يقنع بالعمل والحب والزواج ، فقد اختل التوازن لدرجة لم تَعُدْ تُحتمل . الأفكار تتلاطم فى رأسه ، وعذابات الحياة اليومية تنهك أعصابه . كل إنسان يتكلم بمرارة ويتوثب للصراع . حتى العجوز الطيب حليم الطنطاوى . لقـد تحول إلى نباتى حالَ انتقاله إلى القاهرة ، ولكنه قرأ فى الجريدة عن عشرة مـليون ضـحية للمجاعة . هل خاب سعى الطيبين منذ بدء الخليقة ؟ فإما أن**

نصـــلح وإما أن نستعير حكامًا من كواكب أخرى . أى استحالة هناك فى أن أكـــون المُدَّخَـــر لإعـــادة الخلق ؟! هل توجد آراء صالحة لم تكتشف بعد ؟! أم أتحاشـــى الهمـــوم لأعمـــر مائة عام مثل الرجل المنشورة صورته فى صحيفة اليوم ؟! » (انظر الملحق) .

وأيقظـــه الشيخ حليم الطنطاوى وصحبه إلى صلاة الفجر ، واســـتأذن إسماعيل عقب الصلاة ، واستعاد ذكرياته القديمة ، و « **سخر من أحلامه أول الليل بإعادة خَلْق العالم** » ، وانجذب إلى ظلام حارة التكية ، كأنما يبحث عن شيء فى الظلام ، وتعملق جسده وامتلأ بدم حار ، « **إنه دم وجسد يزحفان نحـــو ظلمة الحارة يلبيان نداءً غامضًا فى لهم . إنه محموم بشهوة طارئة وخجل فى الوقت نفسه من نفسه. ماذا دهاه؟ وهل يليق به ذلك عقب صلاة الفجر ؟»** .. وتقدم من القبو ، وبغريزته الثَّمِلَة رأى ما لم تَرَهُ عيناه . وتسمرت قدماه ، وإذا بقبضة تُطَوِّق قفاه وتجذبه إلى الداخل ، فنَدَّت عنه صرخة ، وسرعان ما هوت فوق رأسه ضربة غليظة فغاب عن الوجود .

هكـــذا تنـــتهى اللوحة الأولى ، التى شغلت اثنى عشر فصلاً ، بدا فيها إسماعيل محسن الغمرى شابًا طيبًا ، خَيِّرًا ، مؤمنًا بالعدالة ، مدافعًا عن الحق ، طامحًا إلى تحقيق مُثُل عليا مفتقدة فى الواقع المليء بالشوائب والشرور ، وهو وإن غَيَّرَ موتُ أبيه من مسار حياته المفترض ، إلاّ إن الأمل بالمستقبل ما زال يمـــلأ عليه شغاف نفسه ، وهو يتخذ من حبه سندًا فى مواجهة هذا التعديل الطارئ ، حتى يستكمل مشوار حياته !

(٢) الوجه الثانى

تبدأ أحداث المشهد الثانى فى « **قبو مسقوف ، سقفه – كجدرانه – مقدود من الأحجار الضخمة ، ذى مدخلين مخرجين** » يفتحان على (حارة) بها « **ثمة حياة صاخبة . أوجه تظهر فى النوافذ وتختفى . دكاكين على الصفين . عربات يد وعربات نقل تذهب وتجىء . باعة ينادون . أناس يتضاحكون ، يتبادلون الجد والهزل . آخرون يتضاربون** » .

هنا يتبدى الوجه الثانى (المقابل) لإسماعيل محسن الغمرى، حين يكتشف نفسه عاريًا تمامًا إلاّ من سروال يغطى عورته، وكَدْمَة تؤلمه فى رأسه . واندهش كائن بشرى، من أهل القبو، من أنه ما زال حيًّا برغم ما حدث له، ثم عقّب موضحًا ما حدث له بقوله : « **ضربوك وسرقوك ، تعيش وتاخد غيرها ..** » !

أمّا الشخصية القوية المهيمنة على المكان ، وهى أيضًا تمثل (المقابل) للسيد ربيع عبد الدايم ، فهى المعلمة عبلة كروان : « **امرأة هائلة فى جسامتها، قوية مثل مصارع ، ريانة الوجه ، كبيرة القسمات ، تلبس مثل الرجال جلبابًا وطاقية ، وفى قدميها الغليظتين مركوب** » ، و « **هى واثقة من نفسها ، قوية راسخة مطمئنة** » ، وهى غنية ، صاحبة دكان خردة ، أرملة فى الخمسين ، قتل زوجها فى غارة جوية، «**يحترمونها لا لأنها محترمة ولكن لقوتها ونقودها**» !.

أمـا الشخصيات المساعدة المستقرة فهم : رياض الدُّبْش الكوّاء ، وخُلُومَه الجحش الفوّال ، رافقتهما المعلمة من قبل ، أى كانا عاشقين لها ، وكل عام تبحث عن رجل جديد ، وكان المرشح للنعيم هو عبدون فَرَجَلّة ، وهو شاب من سن أحفادها . وهناك شخصية أخرى مساعدة هى ابنة القبو المتشردة نجفة ، التى عشقت هذا الوافد الجديد .

بمضـــىّ الوقت وجد هذا الشاب مجهول الهوية مَن أطعمه ومَن تصدق عليه بجلباب قديم ، ثم عرف باسم عبد الله القبو ، **« من ناحية باعتبار عبد الله اسم مَن لا اسم له ، ومن ناحية أخرى باعتباره قادمًا من القبو »**، وخُلِقَ خَلْقًا جديـــدًا ، تحـــت القـــبو أو فى الخـــلاء .. لُقِّنَ لغة جديدة ، لغة الصعاليك والمتشـــردين ، وســـيطرت عـــليه الغريزة وحدها ، فغلظ قلبه ، واخشوشن ســـلوكه ، وامتلأ رأسه الفارغ بالقاذورات والأوهام ؛ **« يستر ظلمات قلبه أمـــام عبلة كروان فحسب ؛ لأنها قوية ولأنها غنية ، ولأنها لا تضنّ عليه بشىء مـــن العطف »** ، ودَعَتْه نجفة إلى ممارسة الشحاذة ، فرفض ؛ لأنه كان يحلم **« أن يحـــلّ محـــلّ عبدون فرجلة .. لا عن حب ، ولكن ليحظى باللقمة الطيبة والكساء »** .

كـــانت تلك هى شخصيات المشهد الثانى ، **فما هو الحدث الذى يمكن أن يؤثر أو يغير مسار تلك الشخصيات ؟!**

بـــدت أولى خيـــوط هـــذا الحدث حين شملت المعلمة عبلة هذا الوافد الجديـــد برعايـــتها ، فدعته أولاً إلى كنس الدكان ، ثم أمرته بأن يدخل إلى الوكالة وأن يرص الإطارات فوق بعضها ، وستتبعه لترى نتيجة عمله ، وقبل أن يبدأ فوجئ بعودة عبدون فرجلة ، الذى أمرته المعلمة أن يدعه يساعده ، فأغـــلق الباب وحذّره من العودة إلى الدكان ، ودبت بينهما مشاجرة ، كان عـــبد الله أسرع فيها إلى التقاط قطعة من الحديد المتراكم ، أصاب رأسه بها فســـقط عـــلى أثـــرها هامدًا خامدًا . ولم يدرك خطـــورة ما فعل ، حتى أوضـــحت لـــه المعلمة أنه ارتكب جريمة يعـــاقب عليها القـــانون ، لكنها

ستساعده على إخفاء أثرها . وفى المساء حمل الجثة على عربته ، كأنه سيوصل بضاعة إلى عميل ، ودفنه بعيدًا فى الخلاء ، وعند عودته اكتشف وجود نحفة ، فأخبرها أن تنتظره حتى يعيد العربة ، وقابل المعلمة التى أخبرته أنها ستذيع أن عبدون سرق أموالها وهرب ، فتساءل عبد الله بقحة : متى يحلّ محلّه فى البيت ؟ فأوضحت أن الأمر سيتم بالتدريج خطوة خطوة حتى لا تثير الشكوك .

واستشارت المعلمة رياض الدبش الكَوّاء فى أن تستخدم الولد ، لأنه وارد من أصل طيب ، فحذرها الكواء بأنه نسى أصله بسبب مرضه ، وهو لا يفترق عن أى متشرد ، فاقترحت أن يتولى إمام الزاوية تهذيبه . وهكذا ألحق بالعمل لدى المعلمة وبدأ الشيخ تربيته . وقررت كذلك « **أن تثبت شخصيته الجديدة ، مستعينةً بتسنينه فى الصحة وتصويره واستخراج بطاقة شخصية له** ». ولكنها لم تسمح له أن يقربها إلاّ فى الحلال بالزواج. وانتقل إلى دارها ، حيث تجلّت له « **امرأة هائلة نهمة شرهة ، مجنونة بلذائذ الحياة** ». لكنه - برغم السيادة الظاهرة - شعر بالقيود تكبل يديه وقدميه ،لأنه ممنوع من مغادرة الحارة ، أو الاقتراب من المقهى ، أو التسكع تحت القبو ، كأنها محاولة لإقناعه بأن حياته السابقة بين الصعاليك كانت بخسة، لا تليق به .

هكذا تنتهى اللوحة الثانية التى شغلت تسعة فصول ، فَقَدَ فيها إسماعيل الغمرى هويته ، وعاش فى الحارة بوجه (ثان) مقابل هو عبد الله القبو ، ومرّ فيها بطورين : الأول تحت القبو ، حيث تحكمت فيه الغرائز وحدها ،

وعاشر الصعاليك والمتشردين وتعلم لغتهم ، حتى قتل عبدون فرجلة ، العامل لدى المعلمة عبلة ، التى ساعدته على إخفـــاء جريمته ، وصنعت له شخصية جديدة - وهو الطور الثانى - هذبتها ببعض تعاليم الدين ، وتزوجته ، حتى تمارس فجورهـــا فى الحلال !

هـــنا ، مجتمع الحارة ، مجتمع (شرير) مقابلَ عالم القرية الطيب الخيِّر ، تهـــيمن عليه شخصية قوية شريرة هى المعلمة عبلة ، مقابل شخصية مسيطرة خيّرة هو السيد ربيع فى القرية !

(٣) الوجه الثالث

تـــبدأ أحداث المشهد الثالث (صدفة) فى الحارة حين ظهر الشيخ حليم الطنطاوى إمام مسجد الزينى ، واقترب من عبد الله داعيًا إياه باسمه القديم ، لكن الفتى لم يتعرّف عليه . وحضرت المعلمة ودعتهما إلى جلسة فى الدكان، وعـــرفت بـــأن الشيخ جاء إثر مسامرته مع إمام زاوية الحارة حول شـــاب غـــائب يلقنه مبادئ الدين ، ومن وَصْفِه عَرَفَهُ . وحاول الشيخ استنطاقه ، ولكـــن الشـــاب لم يتعرف على أىٍّ من ملامح شخصيـــات عالمه القديم ، وانـــتهى اللقاء بأن حذرت المعلمة الشيخ بأن ينفض يده من الأمر ، فالشاب « **مســئول عن نفسه ، سواء حافظ على شخصه الجديد أو رجع إلى القديم ، وهو باق بمحض اختياره** » ، وحذرته من الاتصال بالشرطة ، لأن ذلك ليس فى صالحه !

وذات يـــوم ، لحق به الشيخ حليم الطنطاوى مبكـــرًا فى الدكان ومعه إحســـان ، الـــتى كـــانت تحمـــلق فى وجهه باهتمام وإشفاق ، وسرعان مـــا اغرورقت عيناها ، فعرّفها الشيخ بأنها خطيبته . لكن الفتى لم يتذكر ، فأشـــارت إلى الدبـــلة فى إصبعه ، « **فهز رأسه فى يأس . أجل .. يوجد ماض ولا شك ، وفى الماضى شىء جميل حقًا . يخيل إليه أن قلبه يخفق لأول مرة . هذا شـــعور جديـــد تمامًا . عذب وغامض وخالٍ من العنف والوحشية** » ، وحين أخـــبره الشيخ أن عليه أن (يختار) بنفسه إنْ أراد العودة ، تذكر المعلمة فلاذ بالصمت وتجهم وجهه .

وجاءت المعلمة بوجه يموج بالعنف والغضب ، وتساءلت عن إحسان ، فأجابها الشيخ أنها شقيقته ، فأخبرته أن الشاب زوجها على سنة الله ورسوله،

واستطردت : « اخـــتارنى بحريته ، فأنا لم أغتصبه ، وهو سيد نفسه إذا أراد أن يذهـــب » ، وفى الحـــال انصرفت إحسان ، وحذرت الشيخ بأن يبتعد عنه إن كانت تهمه حياته !

فى هـــذه المرحـــلة ، عاش عبد الله فى (حاضره) الذى ارتفع مدّه حتى أغـــرقه .. « **إنه سعيد محسود بفضل عبلة كروان ، ولكنه يشعر طيلة الوقت بقبضـــتها الدهـــنية الضاغطة . وتصهره حواسها المشتعلة . وهو يتذكر أحيانا العيـــنين الجميلتين ، ولكنه لا ينسى الجثة المدفونة فى الخلاء** » . هكذا « **مضى يتشرب ما تعج به – الحارة – من متناقضات . فى أوقات الهناء يتناسى ماضيه ، وعند الضيق يتساءل : ألا يحتمل أن يكون ماضيه خيرًا من حاضره ؟** » . لكن القـــلق كان قد ساوره منذ زاره الشيخ ، حتى راح يقارن بين حياته فى القبو وفى دار المعـــلمة ، « **فهـــناك يخـــلو الجو من عناء التربية من الخوف .. هناك تستوى المساواة بين الإنسان والحجر والحشرة، هناك قتل بلا خوف ولا ندم . أما هنا فهو سعيد مطارد محروم من الاستقرار** » !

* * *

والآن .. مـــا هـــو الحـــدث الحاسم .. الذى قد يؤثر أو يغير من مسار شخصية الشاب ؟!

جـــاء الحدث حين شعر بألم حاد فى رأسه ورأى شبحا يبتعد فطارده ، وتعرّف فيه على شخصية بجفة ، حتى سقط فاقد الوعى تحت القبو !

اســـتيقظ وقد استعاد شـــخصه القديم ، ورأى الممر الموصل إلى خان جعفـــر ، واندهـــش من الجلباب الذى يلبســـه ، ومضى لصق الجدار حتى وصل إلى بيت الشيخ حليم الطنطاوى، لعله يشرح له ما خفى من أمر نفسه، وبعد أن قابل الشـــيخ اعتذر له عن تأخره ثمانى عشرة ساعة منذ صليا الفجر

معًا ، فدعاه الشيخ إلى الراحة ، وأوضح له الحقيقة بأنه قـــد انقضى عليه عام عـــاش خلالـــه حياة أخرى، وتزوج من امرأة ثانية حتى يئست منه إحسان، ورأى الفـــتى ضـــرورة أن يعـــود ثانيـــة إلى القرية حتى يعد نسخة أخرى من مسوغات تعيينه التى فقدهـــا . ودبر الشيخ أمر لقاء مع المعلمة على أمل أن يحـــلّ الأمـــر بالمعروف ، وأصرت المعلمة أن يتم اللقاء فى بيتها . وتمّ لها ما أرادت ، وأخبرته بأمر زواجه منها ، وأطلعته على بطاقته ووثيقة الزواج ، فلم يقتنع ، وأرجع الأمر إلى مرضه ، وأن له حياة أخرى حقيقية عرفهـــا من المنشأ وحتى الآن ، وطلب مهلة حتى يفكر فى هـــدوء ، فحكت له ما خفى عليه من أمر حياته خلال عام مضى ، بدأه تحت القبو فى غمار المتشردين حتى انتزعته وهيأت له أطيب حياة، وحين أصر على طلب مهلة حتى يتأمل حياته، أخبرته بجريمته وما فعلته حتى أنقذته من حبل المشنقة ، ثم هددته بأن لديهـــا دليـــلاً وشهودًا ، بل والجثة إذا أراد رؤيتها .. فأصر على طلب مهلة يسافر خلالهـــا إلى القـــرية ليفكر بهدوء ، ثم يقرر ، فأخبرته أنها ستتحلى بالصبر ثم تقرر بدورها !

وعـــاد إلى القرية ، فمضى أولاً إلى بيت إحسان ، فرفضت أن تُدخله لأنها وحدها بالبيت وقد عقد قرانها على على العاجاتى بعد أن يئست منه ، فـــرجع إلى بيـــته فوجـــده خاويًا بعد وفاة أمه . وآمن أن عليه أن يسارع باستخراج صورة من مسوغات تعيينه . وفى الطريق الرئيسى (صادف) همام حـــامد ، فأخـــبره بأنه أصبح حديث القرية لزيارته الغريبة لإحسان فى غيبة أمهـــا ، فـــتركه مغيظًا ، وذهب إلى على العاجاتى حتى يوضح الأمر ويبرئ ســـاحة إحســـان ، لكن الرجل رفض أن يسمعه ، لأنها رجته أن يطلقها ، فـــرجع إليها ، بعد أن عادت أمها إلى البيت ، وطلب الانفراد بها ، وهنأها عـــلى شجاعتها ونبلها ، فاعترفت إنها فعلت الصواب ، وأخبرته إنها وأمها

سيغادران القرية إلى بيت خالتها فى برجوان ، فوعدها أن يلحق بهما بعد أن يجدد خطاب التوصية من السيد ربيع عبد الدايم ، لكن الشيخ إبراهيم رفض أن يسمح له بمقابلته بسبب ظروف مرضه وبأمر الطبيب ، فعاد إلى إحسان وأخبرها أنه سيمضى إلى رئيس الشركة مباشرة دون توصية ، لأن الرجل يعرفه تمامًا .

هكذا غادروا القرية . واستقرت إحسان وأمها فى برجوان ، ورفض رئيس الشركة أن يساعده بعد أن تخلّى السيد ربيع عن تأييد أخيه فى المعركة الانتخابية بحجة المرض؛ والحقيقة أنه بات يخاف التعرض للمنازعات . وأخبرته إحسان أن هناك مركز تدريب ستلتحق به تمهيدًا لكى تنضم إلى العاملات فى مصنع نسيج ، وحفّزته أن يجد له عملاً أولاً . وانظر إلى حوارهما الغريب عندئذ ، وتعجب من موقفه :

« – لا أنكر ما فى كلامِك من حكمة ، ولكنى أتذكر دائمًا آمالى .

– ممكن أن تكمل تعليمك ، وقد لا تجد ضرورة لذلك .

فتنهد وقال :

– معذرةً ، كان أملى دائمًا أن ألعب دورًا له شأنه فى المجتمع !

– كل دور له شأنه .

فتردد قليلاً ثم قال :

– عندى مبادئ .. لى رغبة فى الخير عظيمة ، يعزّ علىّ أن أبدد ذلك فى الهواء .

وضحك فى حياء وقال بنبرة المعتذر :

– أتوهم أحيانًا أنى كفء لأكون مصلحًا وسط هذا الفساد المنتشر .

فابتسمت بعطف وقالت :

– مازلت شابًا ، وأمامك فرص لتحقيق آمالك .. » .

***

ووقف مترددًا ، مشلولاً ، لا يريد أن يتحرك ؛ « **لقد ذهب يومَ ذهب إلى الحارة بدافع شهوة غامض لا بدافع سوء الحظ . إنه مسئول عن كل شىء**». وراح يراقب ما يحدث بلا مبالاة . رأى إحسان تمضى فى طريقها، تتدرب ، وعما قريب تبدأ حياتها العملية ، لكنها ترقبه بقلق بالغ . وذات مرّة انتهز فرصة خلوّ الحجرة فوثب نحوها ، ثم تراجع خجلاً حزينًا نادمًا ، وغادرته حزينة وقد اهتزت ثقتها فيه .

مضى إلى الحارة باختياره ، ورجع إلى عبلة كروان التى استقبلته بترحاب ، واقترحت عليه أن يحتفظ ولو سرًّا بشخصيته : « **كن هناك إسماعيل وكن هنا عبد الله ، ثم اختر لنفسك ما يحلو** .. » ، وبرغم سماجة الاقتراح ؛ فقد اعتبره رغبة فى المسالمة ، وبسبب طول الجلسة ألفَ ضخامتها ووحشيتها ، وسرعان ما انتهى معها إلى المخدع .

وخرج إلى الحارة مثقلاً بالهزيمة (لماذا خرج ؟!) ، فلاحقته بخفة محاولةً أن تستعيده ثانية ، وجذبته نحو القبو ، ولما رفض الانقياد لرغبتها ودفعها ، صفرت لأعوانها ، فتكالبت عليه مجموعة كالجراد ، وضربوه بقسوة وجرّدوه من كل شىء ، فعاد سيرته الأولى ، فاضطر أن يعود إلى دار عبلة،

فاستقبلته دهشة ، وعرفت ما حدث له ، وقدمت له فنجان شاى ساخن به مخدر ، فنام .

عرف أنه « **فقد ملابسه وأوراقه ، ولكن من حسن الحظ – أو من سوء الحظ – أنه لم يفقد شخصيته ، فبقى إسماعيل محسن الغمرى وإن يكن فى ملابس عبد الله القبو** » . وأحبّ الشاى الذى فطن إلى سرّه الساحر . وراح يتسلى بالـنظر من وراء الشيش .. « **القبو خال فى أثناء النهار ، ينتشرون فى الأرض لارتكـاب مـزيد من الجرائم ثم يؤوبون إلى القبر لمعاشرة الظلام . ثمة طريقة ولا شـك لكى تتحول هذه الفوضى إلى نظام جميل سعيد . هذه هى رسالته .. لن ينـزل عنها بحال من الأحوال** » . وذات مرة رأى الشيخ حليم مع المعلمة فى الدكان ، فتخيل ما دار بينهما حتى طردته المعلمة .

وإذا بالشـيخ حليم يقتحم عليه خلوته ومعه ضابط شرطة ، سأله عن اسمـه فأجابـه إنـه عبد الله القبو ، وأعطاه البطاقة ، ولما سأله عن سـبب وجـوده فى هـذا الـبيت ، أخبره بأمر زواجه ، وجاءت المعلمة بالوثيقة ، ولما سأله : هل يعرف إسماعيل محسن الغمرى ؟ أجاب بالنفى ، كما نفى أمر مرضـه أو معـرفة الشيخ ، فتراجـع الضابط مع الشيخ وهنأته المعلمة على حسن أدائه .

وراح يواسى نفسه عن فَقْد أوراقه الأصلية ، « **فقـد فَقَدَ قبلها إسماعيل نفسه . ما يعذبه حقًا هو حلمه القديم . حلمه بتغيير الكون والأرض . لو انعدم ذلك الكائن المتمرد المستقر فى أعماقه لانعدم الصوت الذى يؤرقه** » .

وعند المغيب سمع نقرًا ، ووجد نجفة ، التى سرعان ما مرقت إلى الداخل، « **بشرتها مغسولة وعيناها تبرقان** » وأخبرته أنها استحمت فى النيل ، ولما قبض

عـلى ذراعـها ومضى يدفعها ، نزعت عنها الجلباب وهربت إلى المخدع ، وسرعان ما لحق بها مزعزع النفس ، وما هى إلا دقائق « **وإذا بصرخة تنطلق من حنجرة الشاب ، تنطلق مدوية ممزقة بالعذاب** .. » .

لم يخبرنا الراوى بما جرى له ، بل حدث قطع ، فإذا به منطرحًا فى قسم الجـراحة بالقصـر العيـنى وعبلة إلى جواره ، وهو ما نفهم منه أن عبلة – وقد ضبطته فى فراشها مع نجفة – قد آذته واضطرت إلى نقله إلى المستشفى ، وحين حاول أن يعتذر لها بقوله :

« **– أخطأتُ ولكن بلا إرادة !**

فقالت بجمود :

– كل ما فعلْتَهُ فعلْتَهُ بإرادتك .. » .

ثم اعترفتْ له قبل ذهـابها بأنه برغم بؤسه فقـد هزمها للمرة الأولى فى حياتها ، وحررَته برضاها ، ورجع إلى الشـيخ حليم الطنطاوى ، وحدثه بما انتهى إليه أمره ، فأخبره الشيخ أن إحسان التحقت بمصنع النسيج ، وأنها أيضًا خُطبت ، فاعتبرها إسماعيل أخبارًا سعيدة !

ورجـع إلى القرية ليجدد أوراقه ويبدأ من جديد ، وحين حاول لقاء السـيد ربيـع للحصول على توصية جديدة ، ولمّا عرف الشيخ إبراهيم أنه لم يلتحق بعمل بعد ، عرض عليه عملاً مؤقتًا هو أن يقرأ للسيد بعد أن توفى قارئـه القـديم ، لأن السيد لا يستغنى عن القراءة ، وكانت شروط العمل أن يلتزم بالبقاء منذ طلعة الصبح حتى جثوم الليل، مقابل مرتب مع الوجبات، وأنـه سـيقرأ فى حجـرة ملاصـقة أمام مُسَجِّل فينتقل الصوت إلى مكبر

عـــند السيد ، وسيتلقى إشارة البدء والانتهاء برنين الجرس ، لأن جو حجرة السـيد المظلم لا يسمح بالقراءة . وقَبِلَ إسماعيل بهذا العمل المتواضع ؛ لأنه مصمم على إكمـــال تعليمه حتى يستطيع أن يشق طريقًا واضحًا ، و « **أن يحقق أحلامه ، وأن يُكَفِّرَ عن أخطائه وخطاياه . ليكن له فى السيد نفسه قدوة ، وفى إحســـان قدوة أخرى ، فهى مثال للجدية والعزيمة والفضيلة . حتى عبلة ونجفة يتحليان بتصميم جبار وإن اختلف الهدف** »، وبدأ العمل .

***

فى هذا المشهد الثالث الذى شغل واحدًا وثلاثين فصلاً ، وبعد أن عرف الفـــتى بأمر ماضيه ، تأرجح بين عالمى (الماضى والحاضر) ، ينجذب تارةً إلى (القرية) حيث المنشأ الطيب ، فيتسبب فى أذى محبوبته وفقًا لمواضعات المجتمع دون أن يقصـــد ، فتكشف الفتاة عن معدنها الصلب القوى وتطلب الطلاق، كمـــا ســبق أن رفضت نفس الخطيب، وحين ينغلق أمامه باب التوصية ، ومـــن ثَمَّ الوظيفة ، يؤوب ثانيةً إلى (الحارة) إلى الوجه الثانى، لتتلقفه المعلمة مرحـــبة، ويستسلم للضياع ويستمرئ الكسل ، ويرفض العودة إلى شخصه الأول القـــديم ، حتى يحدث لقاءٌ جنسى مرفوض مع نجفة فى بيت المعلمة ، الـــتى اعتبرته طعنة لكبريائها ، فآذته بقسوة قادته إلى قســـم الجراحة بالقصر العينى، وحين اطمأنت إلى حالته أطلقت سراحه، فرجع (حرًّا) إلى شـــخصه الأول، وكـــان لابد أن يعود إلى المأوى الأول ليبدأ من جديد ، وهنا وجد فعـــلاً الســـند والعمل والأمل ، فى حين أن حبيبته السابقة إحسان قد كُلِّلَ تخطيطهـــا فى الـــتدريب بالنجاح ، فالتحقت كعاملة بمصنع نسيج وحظيت بخطيب !

الفصل الثانى

تعليل عدم الرضا النهائى

أوضح نجيب محفوظ - فى حواره السابق الإشارة إليه ، والمنشور بكتاب « **نجيب محفوظ يتذكر** » **لجمال الغيطانى** - رأيه فى رواية « **ما وراء العشق** » حين قرأها بعد مرحلة التبييض بفترة ، والذى انتهى فيه إلى « **عدم رضا نهائى** » ، وقد وجد أن من الصعب أن يعلل أسباب ذلك حين قال : « **من الصعب أن أقول لك ما الذى أثار ضيقى منها** » ، وإن أضاف : « **كنتُ مطمئنًا إلى القسم الأول منها ، لكن القسم الثانى أشعرنى بعد ارتياح** » .

ولعل القسم الأول الذى (اطمأن) إليه نجيب محفوظ هو (المشهد الأول) أو (الوجه الأول) من الرواية ، الذى شغل اثنى عشر فصلاً ، وجرت أحداثه فى قرية الربيعية بصعيد مصر ، التى ملأها وجود شخصية المالك الكبير السيد ربيع (المثالى) ، وتغلغل تأثيره (الطيب) بين أركانها ، حتى امتد إلى داخل البيوت ، لينشأ إسماعيل محسن الغمرى ويتربى متشربًا هذا التأثير ، فكان نتاجًا طبيعيًا للقيم والمبادئ السامية التى مثلها السيد ، نافرًا من كل ما يعاكسها ، فهو الملاذ والقدوة !

أما القسم الثانى ، الذى أَشْعَرَ نجيب محفوظ (بعدم الارتياح) ، فهو يشمل اللوحتين الباقيتين ، أو الوجه الثانى الشرير ، الذى وجد فيه الفتى بيئة مقابلة تحت القبو ، وتَحَدَّثَ من خلاله لغة المتشردين والشحاذين ، محكومًا بالغرائز وحدها ، بعد أن فقد وجهه الأول تمامًا ، ورأت فيه المعلمة (النموذج

القـوى للشـهوانية والجبروت) عشيقًا مختارًا يلبى مطالبها ويشبع شهواتها ، فرفعـته درجة من الحضيض ، واستكملت أوراق وجوده الحاضر ، وهذّبت بـالدين بعضَ مشاعره وأفكاره ، وتزوجته متحوّطة فى تصرفاتها لما قد تأتى به الأيام حين يكتشـف أن له ماضيًا ، وهـو ما حدث فى اللوحة الثالثة ، وما ترتّب على هذه المعرفة من صراع بين ماض يجذبه وحاضر يغريه بالدعة والاستسلام ، حتى كُتب له أخيرًا أن يؤوب سالمًا إلى عالمه القديم فى القرية ، وفى رحاب السـيد حيث استعاد وجهه الأول الحقيقى !

ولعل نجيب محفوظ قد حاول فى أثناء حواره مع الغيطانى أن يبلور بعض مـا شـعر به تجاه الرواية ، لكنه رَأْىٌ لا يمكن أن يفسر قراره الحاسم الباتر بإلغاء الرواية واستبعادها من النشر تمامًا حتى يعيد النظر فيها !

هنا يحتاج الأمر إلى وقفة يتدخل النقد فيها مُفَسِّرًا ، ومُقَيِّمًا ، فى محاولة لتعليل أسباب عدم رضا نجيب محفوظ النهائى عن هذه الرواية !

ويمكـن تصـنيف الأسباب التى قد تفسّر وتعلل أسباب عدم رضا نجيب محفـوظ الـنهائى عن رواية « ما وراء العشق » إلى ثلاث مجموعات رئيسية ، تتبلور كل مجموعة حول عنصر من العناصر التالية :

- **الجنوح بعيدًا عن عالم الحارة الحبيب .**
- **بناء الرواية .**
- رسم الشخصيات .

(١) الجنوح بعيدًا عن عالم الحارة الحبيب

الحارة ، أحد مفاتيح عالم نجيب محفوظ الرئيسية ..

ومن المعـــروف أن نجيب محفوظ قـــد وُلد فى ١١ من ديســـمبر سنة ١٩١١م ، بالـــبيت رقـــم (٨) الذى يواجه قســـم شرطة حى (الجمالية) ، ويطل على (درب) قرمز من ناحية ، وعلى (ميدان) بيت القاضى من ناحية أخـــرى . وعاش نجيب محفوظ فى ذلك المكان (الشـــعبى) اثنتى عشرة سنة ، حتى انتقل مع أسرته إلى بيت جديد فى حى (العباسية) بالقاهرة أيضًا .

لقـــد عاش نجيب محفوظ طفولته ومطلـــع صباه فى (حارة) أحد أحياء القاهـــرة ، فعاشـــت فى (ذاكـــرته) ، وبمضىّ الوقت صـــارت مدخله إلى (الإبداع) ، وفاءً (للتجربة) المُعاشَة . وقد عبّر نجيب محفوظ عن ذلك فى كثير من حواراته ، منها ما أورده فى كتاب «**نجيب محفوظ يتذكر**» **لجمال الغيطانى** ، حين قال : « **إن ما يحركنى حقيقةً عالم الحارة . هناك البعض يقع اختيارهم على مكـــان واقعى ، أو خيالى ، أو فترة من التاريخ ، لكن عالمى الأثير هو الحارة . أصـــبحت الحارة خلفية لمعظم أعمالى ، حتى أعيش فى المنطقة التى أحبها. لماذا تـــدور (الحرافيش) فى الحارة ؟ كان من الممكن أن تجرى الأحداث فى منطقة أخرى ، فى مكان آخـــر له طبيعة مغايرة ، إنما اختيار الحـــارة هنا لأنه عند ما تكـــتب عمـــلاً روائيًا طويلاً ، فإنك تحرص على اختيار البيئة التى تحبها ، التى ترتاح إليها ، حتى تصبح القعدة حلوة** » !

***

تفتتح رواية « ما وراء العشق » على (قرية) منذ سطورها الأولى :

« الـــربيعية قـــرية فريدة المنشأ والتكوين فى القرى . قديمة يمتد عمرها فى التاريخ عشرة آلاف سنة ، جديدة فتية لم يتجاوز عمرها الجديد نصف قرن من الزمان .. » .

هـــنا ، جنح نجيب محفوظ — ربما للمرة الأولى — بعيدًا عن عالم الحارة الأثير لديه .

هل يعلل هذا الجنوح ، بشكل واعٍ أو لا واعٍ ، واحدًا من أسبـــاب عدم رضائه النهائى عن الرواية ؟

أغـــلب الظن أن الإجابة المتأنية ستكون بالإيجاب ، خاصةً أنه لم يجنح بعيـــدًا عن عالم الحارة الأثير لديه فقط ، بل تقدّم إلى مكان يقع على الجانب (المقابل) للحارة ، وهو (القرية) ، البعيدة تمامًا عن مجال خبرته ، وهو ما عَبَّرَ عـــنه فى كتاب « **نجيب محفوظ : صفحات من مذكراته وأضواء جديدة على أدبه وحياته » لرجـــاء النقـــاش – الصـــادر عن مؤسسة الأهرام ١٩٩٨ – فى فصـــل بعنوان « الريف والصعيد » ص٣٥ ، وذلك حين قال : « لم أذهب إلى الـــريف إلا مرّة واحدة عندما كنت طفلاً . أخذنى أقرباء والدى من أسرة « آل عفيفـــى » بالفيوم لقضاء الصيف هناك ، وكانوا يملكون دوّارًا كبيرًا ، أمامـــه حديقة عنب ، وبجانبه أرض فضاء واسعة كنت ألعب فيها كرة القدم . ورغـــم اســـتمتاعى ، إلاّ إننى طلبت إعادتى إلى القاهرة ولم يمض على إقامتى فى الفيوم أسبوع واحد . حاولوا إرضائى لأبقى ، ولكننى كنت شديد التصميم فأعادونى .**

كـــانت تـــلك هى تجربتى الوحيدة فى الريف. وخلال هذه التجربة لم أرَ الفلاحـــين ، ولم أتعمق فى تفاصيل حياتهم ، وربّما كان ذلك هو السبب القوى الذى جعلنى لا أتناول حياة الفلاح وقضاياه فى رواياتى » .

ونفـــــس المعنى سبق أن كرره نجيب محفـــوظ فى حوار له مع سامح كُـــرَيِّم (منشـــور فى كتاب « الرجل والقمة : بحوث ودراسات » ، اختيار وتصنيف فاضل الأسود ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩ ، ص ٤٤) فى ســـياق إجابـــته عـــن سؤال عن عدم ظهور الفلاحين فى ثورة ١٩١٩ فى الـــثلاثية ، وذلك حين قال : « لأننى لم أكتب كتابى عن الثورة فى ذاتها .. وإنما كنت أقدم الأحداث من وجهة نظر محددة فى مكان وزمان محددين.. لهذا لم يكـــن لى شـــرف تناول هذه البطولات التى تشير إليها فى الريف.. ويرجع الســـبب إلى أننى لم أعايش القرية ، ولم أعرف حياتها . ومن البديهى أن الكاتب لا يكـــتب إلاّ بعد معايشـــة تامة للمكان وللناس الذين يكتب عنهم .. فليس الخيال القصصى إلاّ إعادة تكوين للواقع المعاش .. » .

لقد وُلد نجيب محفوظ فى (حارة) من حى (الجمالية) بالقاهرة (القديمة). وفى ذلـــك (المكان) أمضى طفولته ومطلع صباه ، فأحبها ، وعاشت تجربتها فى (ذاكـــرته) ، وتحولت بمضى الزمن إلى (مَعين) لا ينضب (لإبداعه) ؛ وهو يعـــلل ذلك — فى حوار منشور بمجلة « الأقلام » العراقية ، مايو ١٩٨٩ — بقوله : « ومن الطبيعى أن تكون تلك الأحياء مســـرح تجاربى ، ولا أشعر أنى أكتب جيدًا إلاّ عندما أكتب عن زقـــاقى .. وقد تحوّل كل ذلك إلى عالم كلّى من الكمال استطعت أن أجعله كما أريد » .

فإذا جاء فى السنوات الأخيرة من حقبة الثمانينات ، وبعد ما يقرب من خمسين عامًا من بداية رحلته الأدبية ، وكتب رواية ارتكز فيها على (القرية) كمكان ، وبرغم أن هناك ضرورة فنية قد يتطلبها بناء الرواية الفنى حتى تتوازن التجربة مع عالم (الحارة) الأثير لديه ، حين بدت القرية كموطن للنقاء والطهارة ، وظهرت الحارة (كمقابل) محلاً للشر والفساد ، إلا إن هذا لم يكن كافيا ليرضيه . ربّما بدا له جنوحه بعيدًا عن عالمه الأثير ، خروجًا عن مألوف ما تعوّد ، وربما لاضطراره إلى جعل حارته الحبيبة كمعادل محلاً للشر والجريمة !

ربّما لكل ذلك شعر بنوع من نفور لا واعٍ يبعده عن رواية « ما وراء العشق »، بل ربما تحوّل بزوغ القرية ، ربّما للمرة الأولى فى عمل من أعماله، إلى هاجس يؤرقه ، أو إلى نذير مشئوم ظل يطارده ، حتى اتخذ قراره الحاسم بالإلغاء !

(٢) بناء الرواية

لعـــل أول عـــامل لافت للنظر فى بناء الرواية ، أن المجتمعيْن الصغيريْن المقدميْـــن فيهـــا ، وهمـــا القرية والحارة ، رُسِما رسْمًا مجردًا أشبه ما يكون بالمعادلات الرياضية ؛ حيث تخلق شخصية معينة قوية مسيطرة مهيمنة مجتمعًا تابعًـــا ، وطِبْقًا لطبيعة الشخصية يكون المجتمع . السيد ربيع عبد الدايم جاء مـــثالاً للقـــيم الرفيعة السامية ، لذلك خَلَقَ قرية الربيعية على شاكلته حديثةً مـــتطورةً حافظـــةً للقيم ، وقد توجد شخصية جبارة عنيفة جامحة العواطف شـــريرة مثل المعلمة عبلة كروان ، لذلك تحكم مجتمع الحارة ، حيث تضرب الفوضـــى ويعم الفساد . ومن ناحية أخرى ، ينتج المجتمع الطيب شخصيات طيبة ، كما أفرزت القرية إسماعيل محسن الغمرى . بالمقابل تجد الشخصيات الشريرة التى تحكمها الغرائز ملاذها فى مجتمع تحكمه الغرائز وتسوده الفوضى، مثلما وجد عبد الله القبو ملاذه فيما تحت القبو ، ثم فى الحارة عندما احتضنته المعلمة ، وإن خفّف الدين بعضَ غلوائه .

عـــامل آخـــر حكم بناء الرواية هو أحادية النظرة ، فالخير خير مطلق والشـــر شـــر مطـــلق . كأن هناك لونين فقط يحكمان اللوحة هما الأبيض والأســـود ، الأبيـــض خير والأسود شر ، وليس هناك أى تداخل أو ظلال بينهما . السيد ربيع مثالى ، خير مطلق ، نموذج لكل ما هو حسن ، وبالتالى القرية التى صنعها (الربيعية) نموذج بين القرى ، فهى الأفضل ، وهى الخير المطـــلق ، وإن حاول نجيب محفوظ أن يخفّف من سطوة هذا التيار حين أشار إلى وجود تيار مناوئ للسيد ربيع من شباب القرية ، مثّله نموذجٌ وحيدٌ على مـــدار الرواية بأكملها هو همّام ربيع بشكل شرير مطلق أيضًا ، فهو المناهض

للسيد ، وحامل الأخبار السيئة. وبالمثل كانت الفتاة المتشردة نجفة مثالاً سافرًا للشـر المطـلق الكامن تحت القبو ، وإن حاول نجيب محفوظ أن يخفف من سـطوة هـذا التيار بحبها الجارف لعبد الله القبو . كما كانت المعلمة عبلة كروان نموذجًا مجسّدًا للشر وسطوة الغرائز وسيطرة القوة وسط مجتمع الحارة الذى يموج بالشر!

وربّمـا نـتج عن هذا العنصر (أو إعمالاً لمقولة مأثورة) أن ارتبطت القرية بالخير والطهر والنقاء ، وارتبطت الحارة والقبو بالشر والمجون والفساد. وتـرتب على ذلك أن يظلّ إسماعيل محسن الغمرى طيبًا خَيِّرًا طالما هو يعيش فى القـرية ، وينقـلب إلى شـرير بشكل مطلق إذا هبط إلى المدينة ونزل إلى القـبو والحارة ، وتصبح بالتالى أى محاولة لاستعادة شخصه النقى القديم مرهونة ومرتبطة بعودته إلى القرية ، ومن ثَمَّ إلى السـيد ، حتى إذا ما تيسر لـه سبيل للبقاء بشكل دائم فى القرية بسبب العمل إلى جوار السـيد ، غنم استرداد شخصه القديم الخيّر بشكل نهائى !

***

مـن ناحية أخرى ، فإن هذه اللوحات الثلاث - أو الأوجه الثلاثة - وإن جمعـت بينها رواية « ما وراء العشق » فى امتداد متصل واحد ، إلاّ إن كلاًّ منها تصلح رواية مستقلة تكشف كيف تتكون الشـخصية وكيف تتأثر بـالواقع المحيـط بها ، وكيف تؤثر فيه ، وبذلك تَوَزَّعَ جهد نجيب محفوظ وتشـتت بـين الوحدات الثلاث بدلاً من أن يتركز على وحـدة واحدة ، حـتى بدت عظام بعض الأجزاء بارزة قبل أن تكتسى بشحم ودمّ ؛ ولعل ذلك يفسّر هبوط تيار السرد ، بما يعتريه من سكينة وما يصاحبه من هدوء ،

قد يُشعر القارئ فى بعض المواضع بالرتابة والملل ، وكأن تيار القص قد استنفد قوة الدفع التى تحركه ، وأصبح يمضى آليًّا مشيّعًا إلى مستقره الأخير ، وهو ما قد يعنى - أيضًا - أنه لم يتم تزويد تلك الأجزاء بتيارات الحركة الفاعلة والمؤثرة ، التى تُوَلِّد نبض الحياة وتخلق احتدامها وجموحها !

ومن ناحية ثالثة ، يعتمد بناء أى عمل روائى على التطور الطبيعى المنطقى للأحداث ، فإذا افتقدت رواية هذا العنصر ، فقد يعمد الكاتب إلى سدّ ثغرات البناء باللجوء إلى (الصدفة) ، أو اصطناع (حدث مفتعل) ، وهو ما تكرّر كثيرًا فى رواية « ما وراء العشق » . وتجلى ذلك ، بشكل خاص ، فى اللوحتين الثانية والثالثة من الرواية . وانظر للمثال ، ما حدث ذات غروب أثناء عودة عبد الله القبو مع المعلمة عبلة إلى دارها ، حين تبعتهما نجفة ، فكيف جرؤت على أن تتبعه فى حضور المرأة الرهيبة ، وهى التى سبق أن رأى خوفها متجسدًا فى بداية فصل (٢٢) : « **ويلمح نجفة أحيانًا عند مدخل القبو ، ولكنها لا تقترب خطوة خوفًا من بطش المرأة الهائلة** » (انظر **الملحق**) .. ولم تكتف بذلك فقط ، بل ضربته بآلة حادة على مؤخرة رأسه ، فندت عنه صرخة شديدة فى ظلام الليل !

هذا فعل غير منطقى ، لا تجرؤ نجفة على إتيانه خشية بطش المعلمة ، لكن هذا الفعل كان ضروريًّا للتطوّر الروائى ، حتى يتهاوى على الأرض فاقد الوعى ، وحين يعود إلى وعيه يكون قد استعاد ذاكرته ، ومن ثَمَّ شخصه القديم إسماعيل محسن الغمرى !

وتكرّر الأمر ثانية من نجفة،حين كمنت فى الظلام بعد أن غادر الفتى بيت المعلمة ، فلم يتذكرها أو يعرفها ، ولمّا راودته عن نفسه عند القبو فأبى ،

صفّرت لأعوانها فانقضّوا عليه وأشبعوه ضربًا . كما يلاحظ أن فعل خروج عبد الله نفسه فعل غير منطقى ؛ لأنه ذهب إلى عبلة باختياره ، فلماذا خرج مباشرةً بعد اللقاء ؟!

ثم تكرّر نفس الأمر ثانية من نجفة أيضًا فى منعطف قرب النهاية ، حين تجـرأت وزارتـه فى معقل المعلمة ، فى عقر دارها ، وحين فتح لها الباب ، انفلتت إلى الداخل ، وخلعت جلبابها إغراءً له ، فانجذب إليها . وتلك جرأة غـير منطقية منها ، وإقبال غير متوقع منه . لكن كان هناك هدف وراء هذا (الفعل المفتعل) ، وهو أن يقود التطوّر الروائى نحو مسار الختام ، حين تعود المعلمة (صدفة) فى هذا التوقيت لتكتشف فعلهما ؛ ليحدث قطع ينقلنا نجيب محفوظ بعده ، فإذا الفتى فى قسم الجراحة بمستشفى القصر العينى ؛ إيحاءً بردَّة فعـل عنيفة للمعلمة ، ارتكبت فى أثنائها فعلاً عنيفًا معه ، ندمت عليه بعد ذلـك (وهـى التى لا تعرف الندم) ، ونقلته إلى المستشفى حيث أسعفوه ، وظلّت إلى جواره حتى شفى !

فكيف لم تَخْشَ المعلمة أن يتهموها فيما أصابه ؟! .. ولماذا قطع نجيب محفوظ بمباشرةً وانتقل إلى المستشفى ؟!

ربّمـا لم يَخُـضْ نجيـب محفوظ فى تفاصيل ما حدث ، وفضّل القطع والانـتقال حتى لا يقع مأزق يصعب الدفاع عنه ، لكن هذا الختام (المفتعل) أعطـى للمعـلمة مبررًا للاعتراف بهزيمتها للمرة الأولى فى حياتها ، ومن ثَمَّ إطـلاق سراحه - أى تطليقه بالمعروف - وهى التى سبق أن هدّدته بالويل والثبور وعظائم الأمور إذا ما فكر فى الانفصال عنها !

ثم يتســـع مسلسل الصُّدَف ، تارةً وهو يزور منـــزل خطيبته إحسان فى القـــرية بعد أن استعاد ذاكرته وعاد سيرته الأولى ، فإذا (المصادفة) تحدث حين يجدها وحدها وأمها ليست بالبيت ، فلم تسمح له بالدخول ، وبعد أن يغادرهـــا تـــتوالى (الصدف) حين يقابل زميله السابق همّام حامد ممثل التيار المضاد للسيد وحامل الأخبار السيئة ، ليخبره بأنه أصبح حديث القرية بسبب زيارته الغريبة لإحسان فى غيبة أمها ، وهو ما يدفع به إلى مقابلة الرجل الذى عقـــد قرانه عليها ليوضح له الأمر ، فإذا به يفاجئه بأنها طلبت منه الطلاق ، ليرجع إليها ؛ مستأنفًا العلاقة ثانيًا !

صـــدفة أخرى بدت فى ختام الرواية حين ذهب إلى دار السيد ربيع ، فإذا بوكيله الشيخ إبراهيم ، الذى سبق أن رفض رفضًا نهائيًا باترًا أن يقدم له أى مساعدة أو يتيح له أن يقابل السيد ، يخبره أن هناك حلاً مؤقتًا لديه ؛ لأنه قـــد « **تـــوفى مـــنذ قليل قارئ السيد ، أعنى الرجل الذى كان يقرأ له ، فهو لا يســـتغنى عـــن القـــراءة أبدًا ، فما رأيك أن تحل محلّه ؟** » . وانظر للصدفة الحميـــدة : موت قارئ السيد ، مع إيراد معلومة جديدة للمرّة الأولى حول السيد فى ختام الرواية ، وهى أنه « **لا يستغنى عن القراءة أبدا** » .. كل ذلك حتى يتيح له أن ينفتح الطريق أمامه إلى الســـيد ، ومن ثَمَّ إلى القرية ، ثم إلى شخصه الحق !

ومن ناحية رابعة ، يمتد بناء الرواية طوليًا بشكل مطرد فى الزمن للأمام، متـــناميًا بشـــكل متسلسل بطئ فى خط مستقيم يكاد أن يكون منغلقًا على ذاتـــه ، معـــــزولاً عن الحياة الخارجية فى المجتمع الكبير بكل ما تمـــوج به من أحداث كبيرة ، وتيارات قوية جارفة متفاعلة !

وتبقى شائعة برزت فى اللوحـــة الأولى فى نهاية فترة إقامته فى القرية ، وبعد أن نال خطاب توصية للعمل من السيد ربيع عبد الدائم ، فإذا بإسماعيل بعد أن زار مكتبة القرية مودعًا ، يسمع تهكما حول مقابلة الســيد له وهو لا يقابل أحدًا ، وإذا بزميله همّام حامد يلحق به خارج المكتبة ، ويفسّر له ما لا يعــرفه مما يتداول بين الشباب ، ثم يفجعه بأن هناك شائعة تتردد من أن السيد ربيع هو أبوه الحقيقى !

لطمة قاسية وجهها الشاب إليه ، فإذا هى تصدم إسماعيل لفترة وجيزة، وتجعلــه ينفر من أمه لفترة ، لكنه سرعان ما يتجاوزها فى فترة زمنية قصيرة تصل إلى عدة ساعات ، يمضى بعدها لزيارة خطيبته مودعًا وقد سقطت تلك الشـــائعة تمامًا من تفكيره ، بل إنه لم يذكرها بعد ذلك أبدًا ، واستمر تكالبه رهيبًا على مقابلة السيد ؛ تارة بعد أن استعاد ذاته الحقيقية ليحصل منه على خطـــاب توصية جديد بدلاً من المفقود ، وتارةً أخرى بعد شفائه فى القصر العيـــنى وعودتـــه إلى القرية ليبدأ من جديد ، فيحظى بفرصة عمل مؤقت . وبرغم أنه « **لا يغيب عنه أن السيد طاعن فى السن، ولكنه يشعر بأن قربه منه، بالإضافة إلى منـــزلة أبيه عنده ، كفيلان بتهيئة فرص من الخير له قـــد لا تجرى على بال** » (**انظر الملحق**) .

إذن، ما هو المبرر الفنى لبروز تلك الشائعة فى الجزء الأول من الرواية ؟!

(٣) رسم الشخصيات

اعـــتمد رســـم شخصيتى السيد ربيع عبد الدايم والمعلمة عبلة كروان على التقابل الكامل بينهما ، وربما لذلك تم تعميق جانب واحد في كل منهما، كُتــبت له الغلبة والسيطرة على ملامح الشخصية . فالسيد ربيع عبد الدائم فريدٌ بين الرجال ، خرق المألوف من تفكير كبار المُلاّك ، فخَلَقَ قرية الربيعية خَلْقًا جديدًا فى صورة قرية نموذجية، فاستوت لؤلؤة بين قرى جرجا العتيقة ، و « عــندما قامت الحركة الوطنية كان على رأس المتبرعين لها من ماله ، وكان وراء انتفاضة العنف التى أشعلت النيران فى الصعيد، وقد اعتقل مع المجاهدين»، و « مــن أول يــوم أيــد الثورة ، بل أعلن حماسه لفكرة الإصلاح الزراعى والآخــرون يتكتلون لمقاومته ، وشهدت مآثره السابقة بصدقه وإخلاصه حتى اســتحق بجــدارة وصف « الإقطاعى الثورى » . وعايش الثورة فلم يند عنه سلوك مريب أو كلمة ســوء . كان وما زال من عشاق القيم . لا يطيق الفقر أو الجهــل أو المرض ، حقًّا كان غنيًّا ، ولكنه لم يكن عبدًا للثروة أبدًا ، وكان أسيرًا للقيم » ، و « هذا الرجل الذى عمّ خيره الجميع وجد تنغيص الصفو عند أبنائه ، فقد كرهوا كرمه وإحسانه وحماسه ، ولكنه أَدَّبَهُم بحزمه وخلقه ! »

وعــلى الوجــه (المقــابل) كانت شخصية المعلمة عبلة كروان ، فهى « امرأة هائلة فى جسامتها ، قوية مثل مصارع ، ريانة الوجه ، كبيرة القسمات، تلــبس مثل الرجال جلبابًا وطاقية ، وفى قدميها الغليظتين مركوب » ، وهى « واثقة من نفسها ، قوية راسخة مطمئنة » ، و « تشعر بالمراقبة ولكنها لا تأبه لها » ، وهى « أرملة فى الخمسين ، قُتل زوجها فى غارة جوية ، صاحبة دكان خــردة ، يحــترمونها لا لأنها محترمة ، ولكن لقوتها ونقودها . هى الآن عشيقة

عـــبدون فرجـــلة ، وهو فى ســـن أحفادها . رافقت قبل ذلك رياض الدبش الكَـــوّاء وحلومة الجحش الفَوّال ،كل عام تبحث عن رجل جديد » . وانظر كيف رآها عبد الله القبو : « رأى فى شقة عبلة أناقةً وثراءً وذوقًا لم تَجْرِ له فى خيال. امـــرأة تحـــب الحياة حقًّا وتحب المعيشة الطيبة . فى الدكان تبدو رجلاً قويًّا بكل معنى الكلمة ، أما فى الدار فتنجلى عن امرأة هائلة نهمة شرهة مجنونة بلذائذ الحياة » ، كما « أنها امرأة مخيفة حقًّا ، غير عادية فى غضبها ، كما أنها غير عادية فى استمتاعها بالحب . سرعان ما تتكشف عن إعصار . وهى داهية أيضًا ، لا تغضب ولا ترضى إلا بحساب دقيق » .

أمّـــا بالنســـبة للشخصيات المساعدة ، المستقرة ، فقد بدا بعضها باهتًا تارةً ذو لون واحد ثابت لا يتغير ، مثل محســـن الغمرى ، الذى اقتصر دوره - غالبًا - على التغنى بمناقب السيد ربيع وجميل خصاله ، وكذلك زوجته ، وزميـــل إسمـــاعيل المدعو همّام حامد ، والذى رُسم كممثل لتيار من شباب القرية مناوئ للسيد ربيع ، وكحامل للشائعات التى يتناقلها الشباب أو أهالى القرية . وكانت لحظات ظهوره فقط من أجل أداء هذا الدور دون أن تدبّ الحيـــاة فى شخصه ، أو هو لم يوضع قَطّ فى معتركها . وبقدر ما كان الأبُ خيِّـــرًا ، كـــان همّام شريرًا . كما ظهرت شخصيات أخرى كظلال يؤكد وجودهـــا بمجـــرّد أداء دور معين قامت به فى الماضى ، مثل حلومة الجحش الفَوّال ، ورياض الدبش الكَوّاء ، اللذيْن سبق وكانا عاشقين للمعلمة عبلة .

أمـــا الشخصـــية الرئيســـية إسماعيل محســـن الغمرى ، فهناك بعض التضـــارب حول عمره ، ففى حين «أنجبه والداه بعد عقم شارف الأربعين»، نجد أن أباه قد مات « وقد جاوز السبعين بأربعة أعوام » فى نفس العام الذى كان فيه إسماعيل فى الثانوية العامة ولم ينهها ، وهو ما يعنى أنّه يقارب الثامنة

عشرة من عمره . ولكن من معلومتىْ العقـــم وتاريخ الوفاة يتبدى احتمالين لعمـــره . الأول : بأنـــه استمر حتى سن الأربعين وهو ذات عـــام إنجابه ، فيكون عمره منسوبًا للأب أربعًا وثلاثين عامًا . ويبقى الاحتمال الثانى الذى يعنى استمرار معاناة الزوجين من العقم لمدة أربعين عامًا . وحتى يكون عمره فى تـــاريخ الوفـــاة يقارب الثامنة عشر ، فلابد أن يكون الأبوان قد تزوجا فى عمر السادسة عشرة !

مـــن ناحيـــة أخرى ، لم تُلْقِ الرواية أىَّ أضواء على فترة نموّه ونضجه خـــلال اخـــتلاطه بأترابه ، سواءٌ فى الكُتّاب أو فى المدرســـة ، وإن جعلت إسمـــاعيل مؤمـــنًا إيمانًا كاملاً بالسيد ربيع أقرب إلى السذاجة ، وذلك على الـــرغـــم من وجود تيار معارض ومناوئ للسيد بالمدرسة أشار إليه الراوى بشكل خَبَرِىّ ، كمـــا أبرزت الرواية ممثلاً له هو همّام حامد ، لكننا فى جميع الحـــالات لم نَرَ تفاعلاً حيًّا لانغماس إسماعيل بين أولئك الزملاء ، ولم يَحُضْ بالقراء ذلك المعترك ، فكان منطقيًّا حين قرّر إسماعيل الرحيل إلى القاهرة أن تقدم زيارته للزملاء السابقين من الخارج ، لذلك جاءت خبرية فاترة !

مـــن ناحية ثالثة ، عندما مات الأب ، كان ضمن تفكير إسماعيل أمام الجـــثمان أنـــه « **سيحصل على الثانوية العامة فى نهاية العام** » ، وإذا بالإيقاع يتســـارع حين قابل أسرة خطيبته وأخبرهم بأنه سيرحل إلى القاهرة ليعمل ، ثم قابل السيد ربيع، فإذا به يهنؤه قائلاً : «**مباركة عليك الثانوية العامة ..**»، فقـــال إسماعيل ممتنًا : « **كله بفضلك ..** » . هنا يبرز ســـؤال : متى حصل على الثانوية العامة التى سيعتمد عليها بعد ذلك كأحد مسوغات التعيين ؟!

من ناحية رابعة ، هناك موقف غير منطقى وُضع فيه الشاب بعد أن فقد ذاكرته مباشرة ، وتحرك إلى الحارة عاريًا ، فلم يلفت انتباه الناس ، بل دخل فى مناقشة فلسفية أعلى من إمكاناته : « **الناس يمرون به دون أن يلقوا عليه نظرة واحدة أو يلمحونه بلا أدنى اكتراث ، إنه شىء ، مجرد شىء ، كلا ، إنه لا شىء ، ولن يستطيع أن يبقى فى عزلته المرعبة إلى الأبد. إنه فى أشد الحاجة إلى أن يدخل فى أعين الناس كما يدخلون فى عينيه ، أن ينبعث من موته بأى حال وبأى ثمن ، ثم إنه رغم أمله يشعر بعطش وجوع ، وعليه أن يثبت أنه حى ، ولن يتأتى ذلك إلاّ باعتراف الآخرين . ربّما يكون الأمر كله حلمًا مزعجًا ، وحتى فى تلك الحال فلا بد أن يصحو** » (انظر الملحق) .

وهناك ملمح آخر فى شخصية إسماعيل ، تناثرت معطياته على مدار الرواية ، وهو أن يكون (مصلحًا للكون) .

بدأ الأمر ، للمرّة الأولى ، أمام جثمان أبيه بعد أن مات ، لحظة أن أيقن أنه مضطر إلى أن يوقف تعليمه مؤقتًا على الثانوية العامة ، « **ولكن لا مفر من كبح طموحه ، ولو إلى حين ، ذلك بأن ينخرط فى سلك العاملين وأن يستكمل بعد ذلك تعليمه ليحقق أهدافه . لا يجوز أن ينقشع الحلم الكبير عن لا شىء ، أو عن شىء تافه لا يؤبه له . لن يفرط فى حلمه – وهو أن يحقق ذاته – ليقدم بعد ذلك للناس خدمة جديرة بمبادئه وتمنياته السامية** » ، « **لقد تلقى صدمة لا يستهان بها ، ولكن إرادته الصلبة لا تعرف اليأس** » .

ثم فى حوار مع السيد ربيع ، وهو يطلب منه توصية لاضطراره للعمل بالثانوية العامة :

« – **أريد أن أعمل بسبب ظروفنا الجديدة .**

– أكانت لك خطة أخرى ؟

– نعم ، وسأجد الفرصة لتحقيقها بعد الالتحاق بعمل » .

انظر لتلك الشخصية التى تمتلك (حلمًا كبيرًا) بأن تحقق ذاتها ، « **ليقدم للناس خدمة جديرة بمبادئه وتمنياته السامية** » ، والذى أجبر على العمل قبل أن يكمـــل تعليمه ، لكنه سيجد فرصة لتحقيق حلمه .. انظر إلى هذا الشخص وهو فى حضرة رئيس شركة المصنوعات الغذائية حين سأله : إلى أى نوع من الشباب ينتمى ؟ فإذا به يجيب فى حيرة :

« **– ماذا أقول يا سيدى ؟ .. إنى مؤمن بالله والعلم والإنسان ..**

فقال السيد حسنى أبو الفدا :

– جميل ، ولكن الجميع يدّعون ذلك .. » !

هـــنا شـــاب محدودة خبرته نظرًا لنقص تجربته ، وإنْ تَشَرَّبَ كثيرا من المـــبادئ والقيم السامية عن السيد ربيع ، وربما من هذا المنطلق كان حلمه ، اقـــتداءً بالسيد وتيمنًا بمسيرته ، لكنه عند أول تساؤل يكتشف خواء ذاته ، ويردد عموميات !

ثم يبدأ (التناقض) فى رسم تلك الشخصية فى البروز ، فمن حلم ساذج مُـــرْجَأ بســـبب الانقطـــاع عن التعليم والاضطرار للعمل ، إذا به يستشرى ويتضـــخم إلى (إصـــلاح العالم) ، بعد بزوغ إمكانية التعيين والعمل ، بدلا مـــن أن ينكمش ويذوى ، وذلك حين استلقى فى ذات الليلة « **فوق الكنبة فى الظلام وراح يحلم بإصلاح العالم . ما من شىء إلا ويجب خلقه من جديد . ما يجوز لمثله أن يقنع بالعمل والحب والزواج ، فقد اختل التوازن لدرجة لم تعد**

تحتمل . الأفكار تتلاطم فى رأسه ، وعذابات الحياة اليومية تنهك أعصابه . كل إنسان يتكلم بمرارة ويتوثب للصراع . حتى العجوز الطيب حليم الطنطاوى . لقـــد تحول إلى نباتى حال انتقاله إلى القاهرة ، ولكنه قرأ فى الجريدة عن عشرة مـــليـــون ضحية للمجاعة . هل خاب سعى الطيبين منذ بدء الخليقة ؟ فإما أن نُصلح أو نستعير حكامًا من كواكب أخرى . أى استحالة فى أن أكون المُدَّخَر لإعـــادة الخـــلق ؟! هل توجد آراء صالحة لم تكشف بعد ؟! أم أتحاشى الهموم لأعمّـــر مائة عام مثل الرجل المنشورة صورته فى صحيفة اليوم ؟! . ونام مرهقا بالأحلام وسعيدًا .. » (انظر الملحق) .

كـــان الممكـــن والمـــنطقى حين استلقى على الكنبة فى الظلام ، بعد أن كـــتب أول رسالة لإحسان ، وبعد أن تجسدت لخياله فى أثناء كتابتها ، أن ينصـــرف خيالـــه إليهـــا ، وتشتعل رغباته بها ، وقد تصبح هذه المشاعر ســـندًا له ودافعًا ، كى يميل بعد صلاة الفجر نحـــو ظـــلام الحارة ، محمومًا بالشـــهوة . أما أن يتصاعد تفكيره إلى إصلاح العالم ، فهذا تطوّر (متناقض) لا يعـــتمد على أى سند منطقى ، فالشاب تربى فى حياته بالقرية معزولاً عما يجـــرى فى الواقـــع الخارجى ، لذلك فهو يجهل ما يجرى فيه من فظائع ، و لم تـــنهك أعصابه عذابات الحياة اليومية ، و لم يلمس القارئ - من قبل - أى اهتـــمام له بمتابعة الجـــرائد اليومية ، حتى يحـــدث لديه تراكم مما يقرأ من فظائع ، كما لم يظهر له أى اهتمام من قبل بمجـــريات الحكم الظـــالم ن البلاد أو فى غيرها ، حتى يصبح الحلّ منحصرًا بين بديلين ، إما الإصلاح أو استعارة حكام من كواكب أخرى !

ثم تخـــتفى نغمـــة إصـــلاح الكون باختفاء شخصية إسماعيل وإحلال شخصـــية عبد الله محلها ، لكنها تعود بمجرد عودة شخصيته إليه ، برغم أنه

ما زال مكبلاً بما جَرَّتْهُ عليه شخصيته السابقة خلال فقدان ذاكرته من جريمة قتل وزواج . وانظر إلى حواره مع إحسان بعد أن رجعت إليه ، وتعجب مما فيه من غرابة وسذاجة وغير منطقية :

« – لا أنكر بما فى كلامك من حكمة ، ولكنى أتذكر دائما آمالى .

– ممكن أن تكمل تعليمك ؛ وقد لا تجد ضرورة لذلك .

فتنهد وقال :

– معذرة ، كان أملى دائما أن ألعب دورًا له شأنه فى المجتمع !

– كل دور له شأنه .

فتردد قليلاً ثم قال :

– عندى مبادئ .. لى رغبة فى الخير عظيمة ، يعزّ عَلَىَّ أن أبدد ذلك فى الهواء .

وضحك فى حياء وقال بنبرة المعتذر :

– أتوهم أحيانًا أنى كفء لأكون مصلحًا وسط هذا الفساد المنتشر .

فابتسمت بعطف وقالت :

– مازلت شابًا ، وأمامك فرص لتحقيق آمالك .. » .

ثم انظر إليه ثانيةً بعد أن آب منكسرًا إلى حظيرة المعلمة ، بعد الاعتداء عليه بمعرفة أعوان نجفة تحت القبو ، فاستقبلته المعلمة بترحاب ، وتقبل مشروب الشاى ممتزجًا بمخدّر شاكرًا لها صنيعها ، واستسلم لحياته الجديدة تائهًا بفعل سحر المخدر ، وراح يتسلى بالنظر من وراء شيش النافذة :

« القبو خالٍ أثناء النهار ، ينتشرون فى الأرض لارتكاب مزيد من الجرائم ، ثم يؤوبون إلى القبو لمعاشرة الظلام . ثمة طريقة – ولا شك – لكى تتحول هذه الفوضى إلى نظام جميل سعيد . هذه هى رسالته .. لن ينزل عنها بحال من الأحوال » .

وقد نلتمس له العذر وهو تحت تأثير المخدر ، وأن نعتبر الأمر إحدى شطحاته التى قد تتصاعد إلى « بإشارة تَخْضَرُّ الأرض ، وتجلجل المصانع ، ويزدهر المتشردون مثل الورود. ويسيطر السحر ، وينفث أوامره ، ويطير الطفل الذى يحبو فى القبو . الرسالة ولا شىء سوى الرسالة » .

قد يكون ذلك مقبولاً تحت تأثير المخدر ، على ألاّ تصبح تلك إحدى ملامح الشخصية ، ومن ثَمَّ محاولة تجذيرها وتأصيلها لديه ، مثلما بدا بعد ذلك حين أجهض محاولة الشيخ حليم بإحضار الشرطة لإنقاذه ، وذلك بالتمسك بشخصية عبد الله القبو وما يثبتها من بطاقة ووثيقة زواج . وإذا هو يواسى نفسه : « من الخير أن تُفْقَدَ أوراقه ، فقد فَقَدَ قبلها إسماعيل نفسه . ما يعذبه حقًّا هو حلمه القديم . حلمه بتغيير الكون والأرض » .

هنا صوت مختلف ، مضاد ، واع ، فاهم ، ليس تحت تأثير مخدر. إنه يُرجع أمر عذابه إلى حلمه القديم ، حلم إصلاح الكون ، حتى أنه يستطرد آملاً حالمًا : « لو انعدم ذلك الكائن المتمرد المستقر فى أعماقه لانعدم الصوت الذى يؤرقه » . وبطبيعة الحال ؛ لن نقتنع – كقراء – بتنظيره ، أو بأن هناك كائنًا متمردًا فى أعماقه، فعهدنا به إنسان وديع تلاطمته أحداث ومِحَن، ولن يشفع له أن يحاول أن يعلّق أفكاره على شماعة الجنون . « إنه مجنون حقًّا، يلحّ بعناد بمطالبته بإنقاذ نفسه ، بإنقاذ طفله – كما أخبرته لجفة – بإنقاذ

الأرض ولــو بالانضــمام إلى المجانين الآخرين . وتذكر المجانين الآخرين . ربيع عبد الدايم مجنون أيضًا. ولكن ضعف بصره حبسه فى الظــلام . هذا هو الخيال المعـــذب ، أما الحقيقة فتربض تحــت القبو ، أو تنداح فى الإبريق المدفــون فى المجمرة » .

ولــن يقتنع القارئ أيضًا بتفكيره بعد أن يتحرر من قيود المعلمة ويعود إلى قريته ، مأواه الأول ، بحثــًا عن استخراج أوراق جديدة له يبدأ بها ثانية، فــإذا بنفس التفكير يراوده : « عليه ألاّ يبدد الوقت . ما زال الطريق مفتوحًا إلى مثوى السيد ، وما يجوز أن يجد فرصة ولا يجربها . ما زالت أهدافه واضحة ، العمل والتعليم والجَوْد بنفسه للآخرين » !

الباب الثاني

إبداع قصة « أهل الهوى »

الفصل الأول : **تجربة فريدة .**

(١) شذرات من عملية الإبداع .

(٢) الحارة تنتصر .

(٣) حلبة الصراع .

الفصل الثانى : **تهذيب النص .**

(١) بناء النص .

(٢) شخصيات حية .

(٣) دورة الأهواء .

الفصل الأول

تجربة فريدة

(١) شذرات من عملية الإبداع

هى تجربة فريدة بلا شك ، أتاحها وجود رواية « ما وراء العشق » ، التى لم يــرض عنها نجيب محفوظ نهائيًّا ، فأعاد النظر فيها ، و(أبدع) قصــة « أهل الهوى » ، أولى القصص المنشــورة فى مجمــوعة « رأيت فيما يرى النــائم » – مكتبة مصر – (١٩٨٢) .

وحــتى ندخل إلى رحاب هذه التجربة الفريدة ، يتطلب الأمر أن نعود ثانية إلى كلمات نجيب محفوظ ، التى ذكر فيها رواية « ما وراء العشق » ربّما للمرة الأولى ، فى سياق حديثه مع جمال الغيطانى ، حول معايشــته الدائمة لشخصــيات الــثلاثية – المنشور فى كتاب « نجيب محفوظ يتذكر » لجمال الغيطانى : ص ١٠٥ ، ١٠٦ – وذلك حين قال : « **كانت شخصيات الثلاثية لا تبرح فكرى إطلاقًا ، ومن هنا حافظت على وحدة الاتجاه فى الرواية ، حتى فى فترة الإجازة ، أو فى فترات الانقطاع بسبب شغلى فى وزارة الأوقاف . حتى فى الســينما ، كــنتُ أعايش الشخصيات والأحداث ، وعندما كنتُ أستأنف الكتابة بعد انقطاع ، لم أكن أعيد ما سبق أن كتبته . الله يرحمه محمد عبد الحليم عبد الله قال لى : إنه حريص على قراءة ما سبق أن كتبه . إننى أقرأ العمل بعد أن أعيد كتابته . بعد التبييض ، أنتظر فترة ، ثم أعيد قراءته ، وفى جميع الحالات**

أشـــعر بعـــدم الرضا ، أشعر بالفرق بين التصور المبدئى وبين ما أنتجته فعلاً ، بين الطموح وبين ما تحقق ، ولكنه عدم رضا لا يؤدى إلى إلغاء ما كتبته . المرّة الوحيدة التى اضطررتُ فيها إلى إلغاء عمل كتبته حدثت بعد انتهائى من رواية « ما وراء العشق » ، وقد كتبتها خلال السنوات الأخيرة ، وبعد انتهائى منها شعرت بعدم رضا نهائى . من الصعب أن أقول لك ما الذى أثار ضيقى منها . كنت مطمئنا إلى القسم الأول منها ، لكن القسم الثانى أشعرنى بعدم ارتياح ، ولكن هذا نوع مختلف من عدم الارتياح الذى ينتج بسبب ما كان فى خيالك ، وما تحقق بالفعل. لقد كان لدىّ ثلاث روايات: « أفراح القبة » و « ليالى ألف ليـــلة » وتـــلك الـــرواية ، دفعتُ بالروايتين الأوليين إلى النشر ، واحتجزتُ « ما وراء العشق » إلى السنة القادمة ، كى أعيد فيها النظر .. » .

***

أضاء نجيب محفوظ فى حواره السابق بعضَ جوانب عملية الإبداع التى تصلح مدخلاً يقرّبنا من عالم نجيب محفوظ ..

معايشة دائمة لشخصيات الرواية

أوضح نجيب محفوظ أنه يعايش شخصيات وأحداث الرواية التى يكتبها، بحيـــث لا تبرح فكره إطلاقًا ، خاصةً فى فترات الانقطاع عن الكتابة بسبب العمل الوظيفى أو الإجازة ؛ وهو ما يضمن له المحافظة على وحـــدة الاتجاه فيهـــا . وهـــذه المعايشـــة ضرورية لعملية الإبداع ، سواء فى مجال الأدب أو الســـينما . وبســـبب هذه المعايشة ، عندما كان نجيب محفوظ يستأنف

الكـــتابة بعـــد انقطاع ، لم يكن يعيد قراءة ما سبق أن كتبه ، على عكس الكاتب محمد عبد الحليم عبد الله (١٩١٣-١٩٧٠) – وهو كاتب رومانسى عاصـــر نجيب محفوظ ، ومن أهم رواياته : « شجرة اللبلاب » ، « غصن الزيتون » ، و « سكون العاصفة » – الذى أوضح له أنه يحرص على قراءة ما سبق أن كتبه ، وهو ما يعنى أن لكل كاتب قدراته وطقوسه الخاصة . ففى الوقت الذى كان محمد عبد الحليم عبد الله يعتمد على قراءة ما سبق أن كتبه حـــتى يحافظ على وحدة الاتجاه بين ما أنجز وما سينجز ، كان نجيب مطمئنًا إلى معايشـــته الدائمـــة للشخصيات والأحداث ، التى كانت تغنيه عن قراءة ما سبق أن كتب !

مرحلة التبييض

هـــى مرحلة تالية لانتهاء عملية ولادة العمل،يتم فى أثنائها قطع الحبل السُّرّى الذى يربطه بالمبدع ، وإجراء بعض تعديلات يرى المبدع ضرورة أن تحدث ، وذلك بالتصحيح أو الحذف أو الإضافة ، حتى ينفصل عن المبدع ، وتصبح له شخصيته وحياته المستقلة ، وهو ما يتطلب إعادة كتابة العمل مرّة جديدة أخرى (أو مرات) حسبما يقدّر الكاتب .

بانـــتهاء عملية التبييض يكون العمل قد أخـــذ شكله النهائى ، فيتركه نجيـــب محفوظ فترة زمنية مناسبة ، تسمح بخلق مسافة بينه وبين ما أبدع ، وتخرجه من دائرة تأثيره وتعيده إلى حالته الطبيعية ، عندئذ يقوم بقراءة جديدة للعمل ، تبعث فى نفسه بعض الاطمئنان قبل أن يدفع به إلى النشر .

ولكـــن لننتـــبه ؛ فقد بقى فعل الإبداع (مضمرًا) فى الظل ، لم يَخُضْ نجيب محفوظ فى تفاصيله ؛ لأن اهتمامه لم يكن منصرفًا إليه ، وإن ظهر نتاج الإبداع (دانيًا) بين يديه عند بدء عملية القراءة ..

هنا (تقابُل) بين فعلى الإبداع والقراءة ، وإن قام بهما نفـــس الكاتب فى فترتين مختلفتين متتابعتين ،حين أدّى فى الفترة الأولى دور المنشئ ثم المرسل كمـــبدع ، ثم هـــا هـــو – فى الفترة الثانية – يمارس دور المتلقى والمستقبِل كقارئ .

تمّت عملية الإبداع أولاً بشكل خفى مستتر فى أعماق المبدع ، فى حين تُعتبر عملية القراءة فعلاً خارجيًّا ظاهرًا . كما أن الإبداع يتم من خلال دورة لا واعية يصبح فيها المبدع تحت سطوة ما يبدع ويصير خاضعًا له ، فى حين يقـــوم عقـــل الأديـــب بالقراءة بشكل واعٍ . وفى الوقت الذى يدخل فيه الأديـــب فى حومة عملية الإبداع مجذوبًا بفعل قوى داخلية لا يملك الفكاك مـــنها ، يقبل الكاتب على القراءة بِحُرِّ إرادته تحت سيطرته الكاملة ، بحيث يمكن له أن يوقفها متى أراد . وبينما يتحمل الكاتب معاناة عملية الإبداع ، يحفـــزه حـــلم بإنجاز غير مسبوق ، نجد أن الأديب يقبل على القراءة ، آملاً أن يســـتمتع بجمال ما يقرأ وأن يجد فيه ما يروى ظمأه إلى المعرفة . وأخيرًا ، ففـــى الوقت الذى تبدأ فيه رحلة الإبداع من منطقة خبرها المبدع فى الواقع المعـــاش وتنـــتهى ببزوغ العمل الفنى ، نجد أن عملية القراءة تمارس رحلة مقابـــلة ، فى عكـــس الاتجاه ، حين تبدأ من العمل الفنى على طريق العودة راجعة إلى جذور الخبرات التى عركهـــا الكاتب فى واقع الحياة وكانت نبعًا لإبداعه .

فـــإذا عدنا إلى عملية القراءة التى يقوم بها نجيب محفوظ بعد انتهاء فترة زمـــنية مناسبة على الانتهاء من مرحلة التبييض ، فسنجد أن هذه القراءة تتم بغرض إجراء (مقارنة) بين (موقفين) . حدث الموقف الأول (قبل) بدء مرحلة الإبداع ، وحدث الثانى (بعد) أن انتهى الإبداع وتم التبييض .

ينطـــلق الموقف الأول من (فضاء) ما قبل الكتابة ، تحكمه (إرادة) تعى أن عمـــلاً مّا يختمر فى أعماق المبدع (قصة ، قصيدة ، رواية ، مسرحية) ، وأن الكاتب مقبل على الركون إلى عالمه الداخلى ، يحدوه (أمل) فى أن يحقق (حلمًا) معينًا ، (تصورًا) مبدئيًا ، أو (طموحًا) خاصًا ، فى حين يبدأ الموقف الـــثانى وقـــد تم (إنجاز) العمل ، وتجسّد فى شكله النهائى من خلال مرحلة التبييض .

يشترك الموقفان فى أن (عقل) الكاتب يحكم كلاًّ منهما ؛ (ليقارن) بين حلم المبتدأ والمنجز النهائى .

الجديد ، هنا ، هو (حكم) نجيب محفوظ المطلق (بعدم الرضا) فى جميع حالات المقارنة؛ لأن هناك دائمًا فجوة بين التصوّر المبدئى وما تمّ إنجازه فعلاً، بـــين طموحـــه وما تحقق . وهو إحساس طبيعى يراود كل الفنانين الكبار باستمرار ، الذين تعذبهم دائمًا جذوة الحلم بالمستحيل وعدم الرضا بما أنجزوا، يحدوهم تصوّرٌ حافز أن النتاج الفنى كان يمكن أن يكون أفضل مما تمّ ! كما أنهم يعون أن هناك تحولات ترتبط بالتنفيذ ، وهو ما عَبَّرَ عنه نجيب محفوظ — فى كـــتاب « **نجيب محفوظ : حياته وأدبه** » **لنبيل فرج : الهيئة العامة للكتاب (١٩٨٦)** — حـــين قـــال : « **كنتُ أبدأ بعد أن تتبلور فكرة الرواية العامة**

وشخوصها الرئيسية ، ومواقفها الهامة ، غير أن التنفيذ كان يأتى بجديد أو يحوّر ويضيف » . وقد أوضح نجيب محفوظ هذا (الجديد) — **فى مجلة « فصول »** ، **عدد يناير/ مارس ١٩٨٢** – حين قال: **« ولا يعنى هذا أنى عندما أكتبها ألتزم بالصـــورة الأولى ، فكـــثيرًا ما تصبح شخصية ثانوية مهمة جدًّا لأنها فرضت نفسها ، ويجوز أن تتغير فى النهاية . وكل هذه الاحتمالات موجودة »** .

ولعل مما يجدر ملاحظته ، أن هذا (الحكم) جاء من القراءة بعد انقضاء فترة زمنية مناسبة على فعل الإبداع ، وهو ما يعنى أن نجيب محفوظ ، كفنان كـــبير ، يستـــجيب لدفق عملية الإبداع ، ويستسلم لسطوتها حال حدوثها واستمرارها،أما (التفكير) والحكم فيأتى فى مرحلة لاحقة !

فى كل تلك الحالات ، لم يُؤَدِّ (عدم الرضا) بنجيب محفوظ إلى (إلغاء) مـــا كتب ، حيث يتجلى فهم الفنان الكبير لما تقتضيه عمـــلية الإبداع من تحـــولات ضـــرورية للعمل الفنى ، منذ أن يبدأ دورته كنطفة ، حتى يكتمل نضجه فيولد ، وربما مختلفًا عما تصوره فى البدء !

ولكن انظر إلى استخدام نجيب محفوظ التلقائى لكلمة (إلغاء) ؛ للتعبير عمّا آل إليه عدم رضاه النهائى عن رواية « ما وراء العشق » ؛ لأن (إلغاء) هـــو اشتقاق من فعل (ألغى) .. ونقول : ألغى الشيء أى أبطله ، وألغى من العـــدد كذا أى أسقطه . وكأنّ نجيب محفوظ قد رغب فى استبعاد وإسقاط هـــذه الرواية من بين عداد أعماله ! ثم عاد وقرر أن يحتجزها إلى السنة التالية كـــى يعيد النظر فيها ، وهو ما حدث فعلاً حين أبدع منها بعد ذلك قصة « أهل الهوى » ، أولى القصص المنشورة فى مجموعة «رأيت فيما يرى النائم» (١٩٨٢) .

تجربة فريدة

وجه (التفرّد) فى التجربة ، أن عملية (الإبداع) معروف عنها أنها تجربة (خفية) ، غير منظورة ، تتم داخل مُخَيِّلَة المبدع خلال فترة احتضان مناسبة ، وحـــين تكتمل فترة الحمل ، يشعر المبدع بالجنين وهو يدمدم ، مطالبًا بحقه فى الحيـــاة ، ليستقبل المبدع ميلاده على الورق نتاجًا متميزًا دون أن نعرف كيف تَكَوَّن . لكنّ نجيب محفوظ ، عند قراءة ما بعد التبييض بفترة، لم يَرْضَ عن الناتج نهائيًّا ، وقرّر احتجازه إلى العام التالى .. لا نعرف بالضبط إلى متى، لكن فترة الانتظار تلك وحتى بدء كتابته ثانية ، تُعتبر فترة حمل جديدة لعملية إبداع جديدة (فريدة) . **الفريد فيها أن هذه العملية لم تبدأ من تصوّر مبدئى ، أو تخيل ، أو طموح معنوى غير محسوس ، بل انطلقت شرارتها من كيان ظاهر مـــلموس ، هو رواية « ما وراء العشق » ، وانتهت إلى مولود جديد متميز هو قصة « أهل الهوى » !**

وكـــأنّ ما يعطى هذه التجربة (تفرّدها) ، أنها تمت بين كائنين محسوسين ، ظاهـــرين ، ومـــن ثَمَّ يتيح لنا هذا الوجود الملموس أن (نتعرّف) على جوانب التحولات والتغيرات التى جرت فى خلال عملية الإبداع ، وكأنها تحدث تحت أبصـــارنا بشكل (ظاهر) بيّن ، والتى لم يكن متاحًا لنا أن نعرفها من قبل إلا من خلال (أحاديث) بعض المبدعين عنها !

(٢) الحارة تنتصر

حين (قرأ) نجيب محفوظ رواية « ما وراء العشق » بعد مضىّ فترة على مرحـــلة تبييضها ، شعر بعدم رضا نهائى عنها ، فأرجأها إلى العام التالى حتى يعيد النظر فيها .

هـــذه القراءة تعتبر قراءة (نقدية) تتفق مع قراءة الناقد المحترف فى تحقيق نفـــس (الهـــدف) ، وهـــو تـــذوّق العمل المقروء وتفسيره والحكم عليه .. لأن نجيب محفوظ ، ككل فنان كبير ، يتمتع بمَلَكَة نقدية تبرز فقط حين يقرأ أعمـــال الآخـــرين ، أو حين يقرأ لنفسه . لكنّ ممارسة تلك المَلَكَة النقدية (تختلف) ما بين الناقد المحترف والكاتب المبدع ، ففى حين نجدها لدى الناقد واضحة (ظاهرة) مسيطرة عليه ينعكس من خلالها كل نشاطه ، نجدها لدى المـــبدع مختفية (كامنة) منـــزوية تمثل جزءًا ضئيلاً من نشاطه . وفى الوقت الـــذى يمارس الناقد نقده على (الورق) فى خلال مختلف مراحل عمله ، بدءًا مـــن مرحلة التحليل وانتهاءً بمرحلة استنباط النتائج ، نجد أن نقد المبدع يتم عـــادة فى (ذهنه) ، ونادرًا ما يلجأ إلى الورق . كما أن الناقد يبذل فى نقده أقصـــى جهده مستنفرًا كل قدراته ؛ بحثًا عن (المفاتيح) المناسبة للعمل ؛ حتى تتفـــتّح أمامـــه أبواب عالمه بشكل طبيعى ، فيلج إلى داخله ، ويتجوّل بين أركانه ، متعرفًا على مواطن القوة والخلل فى بنائه ، بما يتيح له أن يحكم عليه بشـــكل موضوعى ، فى حين يُعنى المبدع أساسًا بالتعرّف على مواطن القوّة والخـــلل ، لأن مـــنظورَه مـــنظورٌ (ذاتى) فى الأســـاس ، وذلك حين يطبّق الأحكام التى يتوصل إليها على نفسه ، مُحلاً نفسه محلّ الكاتب كمن يقول : **« لـــو كنتُ مكان هذا الكاتب ، فى هذا الموضع ، لفعلتُ كذا .. أو لم أفعل**

كذا » ، كما قد تعتبر تلك القراءة النقدية ، من ناحية أخرى ، لازمة للمبدع لإجازة العمل أو إعادة النظر فيه !

* * *

طـــرح الناقد فؤاد دوارة سؤالا على نجيب محفوظ من خلال حوار معه (منشـــور فى كتاب « **نجيب محفوظ من القومية إلى العالمية** » ، ص ٢٣٣ - الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩) جاء فيه :

« كتبتَ مرّة تقول : علمتنى تجربتى الخاصة أن الموضوع هو مجرد أفكار يحظـــى بثقتى الكاملة ، ولكن بعد مراجعته عند تنفيذه يفقد على الأقل خمسين فى المائة من روعته ، وعند مراجعته مطبوعًا لا يكاد يبقى منه شيء .

أما زلتَ مُصِرًا على هذا الرأى ؟ .. وعلى أى أعمالك ينطبق ؟

نجيـــب محفوظ : هذا إحساس عام ما زال موجودًا إلى اليوم . فالكاتب وهـــو يكـــتب يعـــتقد أن ما يكتبه يعكس كل ما يحسّ به ، أى ذروة انفعاله بالـــتجربة .. وعند قراءته بعد ذلك يتضح له الفارق بين انفعاله فى ذاته وبين التعـــبير المكتوب عنه ، فيظهر هذا الهبوط الذى تحدثتُ عنه . وربما كان هذا الإحساس حافزًا للكاتب كى يؤلف عملاً آخر يحاول أن يحقق فيه التوافق بين التعبير وبين الانفعال .. وهكذا » .

وهـــذا هـــو عين ما حدث ، حين أصبح إحساس نجيب محفوظ بعدم رضـــاه النهائى عن رواية « ما وراء العشق » (حافزًا) له كى (يؤلف) عملاً آخر !

كيف حدث ذلك ؟!

أغلب الظّن أن نجيب محفوظ وهو يعيد النظر فى رواية «ما وراء العشق» ظل لفترة موزعًا بين (قطبين) متقابلين يتنازعانه ، يحاول كل قطب منهما أن يجتذبه بشكل نهائى إلى جانبه .. القطب الأول هو القسم الأول من الرواية الذى كان (مطمئنًا) إليه، وكانت أحداثه تجرى فى (قرية) الربيعية، والقطب الثانى هو القسم الثانى من الرواية الذى أشعره (بعدم ارتياح) ، وكانت أحداثه تجرى فى (الحارة) بشكل رئيسى !

لكن كانت هناك عناصر (مضادة) تبعده عن القطب الأول .. قطب القرية ، فمنذ بداياته الأولى لم يجد راحته فى التعامل مع القرية . وانظر إلى إجابة نجيب محفوظ حول سؤال للناقد **فؤاد دوّارة** حول أعماله الأولى (نشر فى كتاب « **نجيب محفوظ من القومية إلى العالمية** » ، ص٢٢٣) والتى كانت على الوجه الآتى :

« وهل أفهم من ذلك أنك نشرت كل مؤلفاتك فى الرواية حتى التى كتبتَها قبل التخرج من الجامعة ؟

– لا .. فقد كتبتُ روايات كثيرة لم تنشر،منها ثلاثة قرأها سلامة موسى كما أشرتُ من قبل ، وأذكر أن واحدة كان اسمها « أحلام القرية » .. وتستطيع أن تتصور موضوعها من عنوانها » .

من ناحية أخرى ، كانت قرية العزيزية هى إحدى قرى جرجا ن صعيد مصر ، ولم يكن يريحه بالتأكيد أن يكتب عن مكان « **لم يذهب إليه فى حياته كلها** » ، وهو ما اعترف به – فى كتاب « **نجيب محفوظ : صفحات مجهولة من حياته وأضواء على عمله** » **لرجاء النقاش ، ص ٣٥** – حين قال : « **إذا كان لى تجربة واحدة مع الريف ، فإننى لم أذهب للصعيد فى حياتى كلها ،**

ولم أزُر الأقصــــر أو أسوان أو أيًّا من الأماكن الأثرية المشهورة هناك . مع أننى أسمــع أنهــا مناطق جميلة ، ويأتى إليها السائحون من كل أنحاء العالم ، ولكنه الكســـل ! ورغم عدم زيارتى للصعيد ، فقد تعرّفتُ عليه من خلال الأعمال الأدبية التى تناولته ، مثل رواية « دعاء الكروان » و « الأيام » لطه حسين . وما زالت معرفتى بالصعيد تتم من خلال القراءة والاستماع » .

أمّــا (الســبب) وراء نفــــوره من الكتابة عن الريف فنستشفه من أنه لم (يَقْضِ) وقتًا فى القرية يتيح له (تجارب) فى هذا الميدان ، حتى يستطيع (معــرفة) أحــوال الفلاحين .. وهو ما عبّر عنه فى سياق إجابته عن سؤال لسامح كُرَيِّم حول عدم ظهور الفلاحين فى أعماله (فى حوار منشور بكتاب « **نجيــب محفــوظ : الرجل والقمة** » ، إعداد فاضل الأسود – الهيئة المصرية العامــة للكــتاب ، ١٩٨٩ ، ص ٤٤) ، وذلــك حين قال : « **والبركة فى إخواننا الأدباء الفلاحين مثل الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى والأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله والأستاذ ثروت أباظة .. فلديهم فى هذا الميدان تجارب ..**».
وحــين تطــرق سامح كُرَيِّم بسؤال آخر ، فى ذات الحوار السابق ، حول المستقبل وإمكانية أن تجد بطولات القرية مكانا فى أدبه، أجاب نجيب محفوظ: **« إننى أتمنى أن أكتب للفلاحين .. وياليت الفرصة تتاح لى لقضاء وقت فى قرية حــتى أســتطيع معرفة أحوال الفلاحين .. حتى أكتب عنها .. لأننى أعد ذلك تقصيرًا منى .. إذ اعتبرتُ أننا فى الأصل فلاحين » .**

هــنا يؤكــد نجيب محفوظ على ضرورة (المعيشة) فى القرية حتى يتاح لــه اكتســاب (تجارب) فيها ، و(معرفة) أحوال الفلاحين هناك ؛ لأن هذه التجارب وتلك المعرفة هما (النبع) اللازم للإبداع، وبدونهما لا يستقيم الأمر، وهــو ما أكّده فى حوار له (منشور بكتاب « **نجيب محفوظ يتذكر** » لجمال

الغيطـــانى ، ص٥٦) ، وذلـــك حـــين قال : « خذ مثلاً كُتّابنا الذين عاشوا فى الـــريف مـــثل محمد عبد الحليم عبد الله أو عبد الرحمن الشرقاوى ، ستجد أن الـــريف هو حجر الزاوية فى أعمالهم ومنبع أعمالهم ، نعم .. لابد للأديب من شىء ما يشعّ ويلهم .. » .

هـــنا ، اختتم نجيب محفوظ كلماته بـــ (نتيجة) ، مؤداها (حتمية) أن يســـتند الأديب إلى (الارتباط) بـــ (مكان) معين يكون حجر الزاوية ونبعًا لأعماله (يشعّ ويلهم) .. وهو ما حدث للكتاب الذين (عاشوا) فى الريف ، مثل محمد عبد الحليم عبد الله أو عبد الرحمن الشرقاوى .

وتنطبق ذات (النتيجة) على نجيب محفوظ وإن اختلف المكان ، لأنه وُلد وعـــاش طفولـــته وصـــباه حتى الثانية عشرة من عمره فى (حارة) من حى الجماليـــة، أحـــد أحياء القاهرة القديمة ، وقد تحدث عن تأثير ذلك (المكان) الذى يشعّ له ويلهمه – فى كتاب « **نجيب محفوظ يتذكر** » **لجمال الغيطانى** – وذلك حين قال : « **عندما أمرّ فى الجمالية تنثال علىّ الخيالات . أغلب رواياتى كانت تدور فى عقلى كخواطر حيّة أثناء جلوسى فى هذه المنطقة**». وقال أيضًا ، فى ذات الكـــتاب (ص ٥٧) ، حول تجربة عمله كموظف فى مكتبة الغورى بالأزهر : « **لقـــد قضيتُ شهورًا من أمتع فترات حياتى فى مكتبة الغورى ، فى هذه الفترة مثلاً قرأتُ مارسيل بروست « البحث عن الزمن الضائع » ، وكنتُ أتردد بانتظام على مقهى الفيشاوى فى النهار ، حيث المقهى العريق شبه خال ، أدخـــن النرجيلة ، أفكر وأتأمل . كنتُ أمشى فى الغورية أيضًا . لقد انعكستْ هـــذه المنطقة فى أعمالى ، حتى عندما انتقلتُ بعد ذلك إلى معالجة موضوعات ذات طـــبيعة فكـــرية أو رمزية ، عُدْتُ أيضًا إلى الحارة . إن ما يحركنى حقيقةً عالـــمُ الحارة** » .

إذا شئنا أن نوجز كلمات نجيب محفوظ فسنجد :

- ارتباط نجيب محفوظ الشديد بمنطقة (الجمالية) كحجر زاوية ونبع لأعماله (يشع ويلهم) ، حتى أنه عندما يمر به تنثال عليه الخيالات .
- كان يتردد بانتظام على المكان ، حتى يفكر ويتأمل .
- أشعّ هذا المكان من خلال جلوسه فيه وألهمه أغلب رواياته .
- حتىعندما تطوّرت أعماله وانتقل إلى معالجة موضوعات ذات طبيعة فكرية أو رمـــزية ، عـــاد أيضًا إلى (الحارة) التى كانت محورًا ومرتكزًا لأعماله السابقة !

***

هـــنا يتبدى القطب الثانى ، وهو (الحارة) ، الذى تنازع نجيب محفوظ وهـــو يعيد النظر فى رواية « ما وراء العشق » كمقابل للقطب الأول وهو (قـــرية) الـــربيعية . وهو وإن كان قد شعر بعدم ارتياح فى القسم الثانى من الرواية ، الذى يتخذ من (الحارة) مرتكزًا ، إلاّ إنه – وفقًا للسياق المتسلسل الســـابق – قد كُتبت الغلبة للقطب الثانى ، يدعّمه ما يقرب من كل إنتاجه الأدبى عـــلى مـــدار نصف قرن تقريبًا ، لم يبتعد عنها ، بل كان فى خلاله مرتبطًا بالحارة أشدّ الارتباط !

وربمـــا حين توصّل نجيب محفوظ إلى هذه (النتيجة) ، وأيقن أن (الحارة) انتصرت ، قام بعملية(بتر) للقسم الأول (أو المشهد الأول) الخاص بالقرية من روايـــة « ما وراء العشق » ، وكذلك بتر (حذف) المشهد الثالث منها الذى حدث فيه تَوَزُّع بين الحارة والقرية ، وأبقى على المشهد الثانى الخاص بالحارة ،

ليكون محورًا ومرتكزًا لعمله الجديد ، فحقق له هذا الفعل المبدئى راحةً نفسية ضرورية ، وأشبع (حنينًا) لا ينقضى إلى (الحارة) مرتبطًا أشَدَّ الارتباط بتجربته الفنية، وهو ما عَبَّرَ عنه – فى كتاب « نجيب محفوظ يتذكر » لجمال الغيطانى ، ص١٠٨ ، ١٠٩ – حين قال : «حنينى إلى الحارة جزء من حنينى إلى الأصالة . عندما بدأنا نكتب الرواية ، كنا نظن أن هناك الشكل الصح والشكل الخطأ .. أى أن الشكل الأورُبى للرواية كان مقدسًا . بتقدم العمر تجد أن نظرتك تتغير ، وأنك تريد أن تتحرر من كل ما فُرض عليك ، ولكن بطريقة تلقائية وطبيعية ، وليس لمجرد الخروج أو كسر الشكل عمدًا . تجد نفسك تبحث عن النغمة التى تستخرجها من أعماقك ، أيًا كانت هذه النغمة ، سواء عادت بك إلى القديم ، أو قادتك إلى المودرنيزم ، أو عادت بك إلى الحدوتة . يعنى كأنك تقول : ما هى الأشكال التى كتبوا بها ، أليست طُرُقًا فنية خلقوها هم ، لماذا لا أخلق الشكل الخاص بى الذى أرتاح إليه ؟ » .

وإذا أردنا أن نوجز المعادل الفنى لكلمات نجيب محفوظ فسنجد :

- يمكن أن يتفسر فعل (البتر) للمشهدين الأول والثالث من رواية « ما وراء العشق » والإبقاء على المشهد الثانى الخاص (بالحارة) على أنه إشباع لحنين لا ينقضى للحارة !

- الحنين إلى الحارة هو جزء من الحنين إلى الأصالة ؛ لأن نداء القلب هو الذى يشده إلى الحارة ، وهو نفسه المرشد إلى (الشكل) الذى يأخذه العمل الأدبى ، إلى (المستقر) الصادق، الذى يستدل عليه بطريقة تلقائية وطبيعية !

● لعل هذا النداء النابع من القلب ، أو النغمة المستخرجة من الأعماق ، هـــى الـــتى دفعت به إلى التمرد على رواية « ما وراء العشق » كعمل مُنْجَز ، وكسر قيودها بالبتر ، وكفلت له العودة ثانيةً سالمًا مطمئنًّا إلى (الحـــارة) ملعبه الأصلى ، ملاذه الآمن ، ومستقرّه الدائم ؛ ليبدأ فيه مرحلة جديدة من (الإبداع) وهو مطمئن البال !

(٣) حَلَبَة الصراع

المذهـــل فى أمـــر تصرف نجيب محفوظ ، أن الجزء الذى أبقى عليه من روايـــة « ما وراء العشق » تُمَثِّل فيه الحارة (حلبةَ صراع) محتدم ؛ لأننا إذا عدنـــا إلى مشاهد الرواية الثلاثة ، فسنجد فى المشهد الأول شخصية (خَيِّرَة) نتاج شخصية مهيمنة (خَيِّرَة) فى قرية ، وفى المشهد الثانى يصل نفس الشاب الخَيِّر إلى (حارة) وقد فَقَدَ ذاكرته وأصبح تحت سطوة غرائزه أمام امرأة جميلة (شريرة) ، وفى المشهد الثالث نفس هذا الشـــاب وقد استعاد ذاكرته وأصبح موزعًا بين ماضٍ قريب ملوّث وماضٍ بعيد خَيِّر نقى .

يـــنفرد المشهد الثانى (وحده) بأن الحارة تمثّل فيه حلبة صراع محتدم عـــلى مستويات عدة ، أولها صراع رئيسى بين الشاب والمرأة الجميلة ، يـــتفرع منه عدد من محاور الصراع الفرعية : بين الشاب وأهالى الحارة ، وبـــين المـــرأة وأهـــالى الحارة ، وبين الشاب وماضيه المجهول ، وبين فتاة من تحت القبو والشاب !

هـــنا يكـــون قد بزغ أمام نجيب محفوظ (طرفًا) الصراع الرئيسى ، وانكشفت له (رؤياه) !

فبالنســـبة للطرف الرئيسى الأول فى الصراع ، وهو الفتى ، لعل هناك ثلاثـــة عناصر ساعدت على رســـم شخصيته ، وذلك فى الجزء الذى أبقى عـــليه نجيـــب محفوظ من رواية « ما وراء العشق » . أول هذه العناصر هو « القـــبو » ، الذى اعتدى عليه فيه ساكنوه حتى أفقدوه ذاكرته ، وجرّدوه من ملابسه ، فخرج إلى الحارة عاريًا . و « العُرى » هو العنصر الثانى على

طريق رسم شخصية الفتى. أما العنصر الثالث فهو اسم « عبد الله » القبو ، الذى اشتهر به بين سكان الحارة .

هـذه ثلاثة عناصر موحية .. القبو يوحى بالبؤرة ، المركز ، الملجـأ ، وقـد يرمز لرحم الأم ، يرتبط به الخروج للمرة الأولى عاريا ، كما المولود لحظة بزوغه من بطن أمه . أما اسم عبد الله فيعنى العبودية لله الخالق ، ويمكن أن يرمز للإنسان بشكل عام .

سـاعدت هذه العناصر الثلاثة على إخراج شخصية الفتى من إطارها الواقعـى (المباشر) الذى ظهرت به فى رواية « ما وراء العشق » ، ومنحها أكثر من بُعْد (غير مباشر) فى قصة « أهل الهوى » !

أما اسم « **عبد الله** » الذى أطلقته المرأة على الفتى ، فقد سبق لنجيب محفوظ استخدامه مرتين ، حتى يمنح للشخصية بُعدها العام كإنسان . الأولى فى قصة « **حادثـة** » – **من مجموعة** « **دنيا الله** » **(١٩٦٣)** – والتى مات فيها بطـلها « عـبد الله » مجهـولاً فى حادث سيارة مفاجئ ، بأمره وحده ! والاستخدام الثانى لاسم « عبد الله » ورد فى قصة « **حارة العشاق** » – **من مجموعة** « **حكاية بلا بداية ولا نهاية** » **(١٩٧١)** – التى تعكس تذبذب رحلة الإنسـان بـين أحكام القلب والعقل ، وهى من التيمات الأثيرة لدى نجيب محفوظ ، والتى عالجها فى أكثر من عمل له .

الطـرف الرئيسى الثانى فى الصراع هو المرأة ، فإذا اسـتعدنا ملامحها الواقعيـة كمـا رسمها نجيب محفوظ فى رواية « ما وراء العشق » ، فسنجد أن اسمها هو المعلمة « **عبلة كروان** » ، وهى « **امرأة هائلة فى جسامتها ، قوية**

مثل مصارع ، ريانة الوجه ، كبيرة القسمات » ، و «هى واثقة من نفسها، قوية راسخة مطمئنة » ، وهى أيضًا غنية ، صاحبة دكان خردة ، أرملة فى الخمسين ، قُتل زوجها فى غارة جوية ، « يحترمونها لا لأنها محترمة ولكن لقوتها ونقودها » ، كما أنها « امرأة هائلة نهمة شرهة ، مجنونة بلذائذ الحياة » ، تتخذ كل فترة عاشقًا جديدًا لها ، مثلما حدث مع رياض الدبش الكوّاء ، وحلومة الجحش الفوّال ، حتى إذا مَلَّتْهُ لفظته وبحثت عن شاب جديد ، وكان المرشح للنعيم عبدون فرجلة ، لولا ظهور هذا الوافد الجديد .. الفتى فاقد الذاكرة .

إذن ، فأهم ملامح المرأة هو قوتها الرهيبة المسيطرة ، وأنوثتها الطاغية النَّهِمَة التى لا ترتوى ، وبحثها كل حين عن عاشق جديد ، حتى تزوجت عبد الله القبو .

نفس ملامح تلك المرأة سبق أن استخدمها نجيب محفوظ فى قصة « روبابيكيا » - من مجموعة « حكاية بلا بداية ولا نهاية » (١٩٧١) - فإذا هى سيدة جميلة بقَدْر ما هى قوية ، نظرتها جريئة ورزينة ومليئة بالثقة ، وهى مطلقة أيضًا ، جربت الزواج أكثر من مرة ، وهى « نبع للحب لا ينضب أبدًا » ، وهى ترى نفسها « امرأة بريئة ، لا عيب فيها إلا أنها تحب الحياة حبًّا لا يعرف الحدود » ، ويراها الآخرون « ما أكثر أخبارها ، وما أقلها ، حَدَثٌ واحد يتكرر إلى ما لا نهاية : زواج طلاق ، زواج طلاق ، زواج طلاق ، زواج ...» ، و «جمالها فى عينى غير قابل للزوال !»، ويقول لها أحد أزواجها: « لك كمال مروّع لا يحتمل » ، و« لم تتغيرى ، أما أنا .. » ، وأشد ما تكرهه فى الرجال هو (العجز) ، وهى تريد محبوبها « قويًّا قادرًا ، رذائل

القـــوة أحبّ عندى من فضائل الضعف » . وتنتهى القصة وهى « تسير على مهل وكأنما تبحث عن رجل جديد » !

فى هـــذه القصـــة تتـــبدى المرأة فى أبهى صور الأنثى وأكثرها إغراءً ، ولم تُعرف باسم معين ، بما يسمح بتأويلها على أكثر من مغزى .. فهى تارةً الأنثى الأزلية التى تنصب شِراك إغرائها أمام الرجل ، حتى إذا ما استنـــزفت طاقـــته لفظـــته متهمةً إيّاه بالعجز ، باحثةً عن غيره . وهى تارةً أخرى ترمز إلى الدنيـــا ، التى تَعِدُ بإغراءات لا ترتوى ، تعبد القوة ، وتكره العجز ، فإذا انســـاق لهـــا الإنسان وخضع ، كان مآله أن يتحول إلى متاع قديم لا قيمة له (روبابيكيا) ، وإلى الضياع !

ولعل شخصية تلك المرأة بطلة قصة « روبابيكيا » ، ومضت فى (مخيّلة) نجيب محفوظ وهو يقوم بعملية (البتر) ، وحين أبقى على الجزء الأوسط فقط مـــن روايـــة « ما وراء العشق » ، إذا هو يقدّم امتدادًا وتطويرًا لها ، وذلك اتســـاقًا أيضًـــا مع شخصية « عبد الله » فى أبعادها الجديدة . عندئذ لم يَعُد الموضـــوع المعـــالج هو موضوع (الشخصية) فى أطوارها المختلفة ، بل غدا مـــتركزًا عـــلى (علاقة هوى مدمر لامرأة جميلة) من خلال أبعاد متعددة ، **أو بمعنى آخر : أصبحت المعالجة تنويعة (جديدة) على ذات التيمة السابقة الـــواردة فى قصة « روبابيكيا » ، وإن جاءت أكثر ثراء وغنى لتركيزها على (علاقة الهوى) وحدها حال بزوغها ، ثم تَقَصِّى أسباب انقضائها !**

هنا قد يبرز سؤال : هل هذا ما دعا نجيب محفوظ إلى (تغيير) العنوان الذى اختاره أولاً لرواية « ما وراء العشق » إلى عنوان (جديد) اختاره للمعالجة الجديدة ، التى أصبحت قصة ، وهو « أهل الهوى » ؟!

قد يتفسر الأمر أولاً إذا رجعنا إلى المعنى اللغوى .. العشق هو الاسم من فعل عَشِقَ ، وهو عَجَبُ المُحِبّ بالمحبوب ، أو حبّه له أشد الحب ؛ لأن العشق فيه إفراط ، وسُمِّىَ العاشقُ عاشقًا لأنه يذبل من شدة الحب . أما الهوى ، فهو ميل النفس إلى الشىء خيرًا كان أو شرًّا ، وقديمًا قال اللغويون : الهوى محبة الإنسان للشىء وغلبته على قلبه . وفى التنزيل العزيز ﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴾ ، أى نهاها عن شهواتها وما تدعو إليه من معاصى . فالعشق ينصرف إلى الحب وإن كان فيه إفراط ، ولكن تغلب عليه صفة العفّة والنقاء كما ورد فى تراثنا العربى . أما الهوى ، فهو وإن كان فيه أيضًا إفراط ، إلا إنه يميل أكثر إلى الجانب الحسّى ويرتبط بالشهوات .

ونجيب محفوظ، كفنان كبير ، يهتم أشد الاهتمام بأدق تفاصيل العمل، ويلعب اختيار (عنوان) الرواية أو القصة واختيار أسماء الشخصيات – كما سنرى – دورًا مهمًّا ، بمعنى أن يعبّر عنوان العمل عادةً عن جوهره أو جوهر الصراع فيه ، كما تعكس أسماء الشخصيات لُبَّ تكوينها ومحور حركتها !

يوحـــى عنوان « ما وراء العشق » باستكشاف ما خفى وتوارى وراء العشـــق من أحداث ونتائج ، فى حين يركّز عنوان « أهل الهوى » الأضواء عـــلى أولئك الذين يمارسون الهوى واعتادوه حتى أصبحوا أهلاً له . كما أن « مـــا وراء العشـــق » يُحيل إلى ما أَلِفْناهُ فى تراثنا من حب عُذرى يكابد العاشقُ ويلاتِه ويتغنى بعذابه ، فى حين يجنح « أهل الهوى » ويولغ فى الجانب الحسّـــى . العـــنوان الأول محدد مباشر ، والثانى عامٌ مُوحٍ . فى الأول نقاء وروحانية ، وفى الثانى غريزة وشهوانية !

الفصل الثاني

تهذيب النص

والتهذيب كلمة تعنى : التنقية . أما أصل كلمة التهذيب – كما أورده « لسان العرب » – فهو « **تنقية الحنظل من شحمه ، ومعالجة حَبِّه ، حتى تذهب مرارته ، ويطيب لآكله** » .

والفعل هَذَّبَهُ يعنى : نَقّاهُ وأَخْلَصَهُ ، وقيل : أصلحه . وهَذَّبَ الكلام : أى خَلَّصَهُ مما يُشينُهُ عند البُلَغاء ، وهَذَّبَ الكتابَ : أى لَخَّصَهُ وحَذَفَ ما فيه من إضافات مُقْحَمَة أو غير لازمة .

والتهذيب هو التنقيح ، أى : « **إعادة النظر فيما يكتبه المؤلف أو الأديب ليخرج الكلام متسقًا دقيقًا** » . وقد اهتم العرب منذ قديم الزمن بالتهذيب والتنقيح ، حتى أن كثيرًا منهم – كما ورد فى « **معجم النقد العربى القديم** » **للدكتور أحمد مطلوب ، الصادر عن دار الشؤون الثقافية ببغداد ، ١٩٨٩** ، ص٤٠٤ – قد أسموه تهذيبًا ، مثل الحِلِّى وابن الأثير الحلبى والحَمَوِى والنواحى والمصرى ، الذى عقد بابًا لهذا الفن قال فيه : إن « **التهذيب عبارة عن تَرْدَادِ النظر فى الكلام بعد عمله لينقح ويتنبه منه لما مرّ على الناثر أو الشاعر حين يكون مستغرق الفكر فى العمل ، فيغيّر منه ما يجب تغييره ، ويحذف ما ينبغى حذفه ، ويُصلح ما يتعيّن إصلاحه ، ويكشف عما يُشْكِل عليه من غريبه وإعرابه ، ويحرر ما لم يتحرر من معانيه وألفاظه ، حتى تتكامل صحته وتَرُوق بهجته** » .

نخلص مما سبق إلى أن التهذيب يعنى :

- إعادة النظر فيما كتبه المؤلف أو الأديب ، حتى يتنبه لما مرّ عليه فى خلال استغراقه فى العمل .

- تتضمن عملية إعادة النظر أن يُحذف ما ينبغى حذفه من زوائد غير لازمة وإضـــافات مقحمـــة ، أى أن يغيّـــر ما يجب تغييره ، ويصلح ما يتعين إصلاحه ، بأن يضيف ما يكمل أى نقص موجود ، أى أن يكثف البناء ويركّزه لأن الفن إيجاز .

عـــندئذ يكتمل بناء العمل الفنى ، وتتضح ملامحه ، حتى يطيب للقارئ أن يقبل عليه ويستمتع بمذاقه العذب الخلاب !

(١) بناء فنى

دورة واحدة

كـــانت روايـــة « ما وراء العشق » تتكون من (٥٢) فصلاً مرقمًا ، موزّعـــة على ثلاثة مشاهد متتالية ممتدة ، وبعد إجراء التهذيب وإعادة النظر فى هيكـــلها الرئيسى بالبتر (الحذف) للمشهدين الأول والثالث ، والاقتصار عـــلى المشهد الثانى فقط ، الذى يبدأ من الفصل رقم (١٣) وينتهى بالفصل رقـــم (٢٢) ، لم يَعُـــدْ هـــذا (الشكل) الانسيابى المتسلسل مناسبًا للمعالجة الجديـــدة ، بعد تركيز كل أضواء الحَكْى على (مشهد) واحد ، بحيث انطلق نـــص قصة « أهل الهوى » ، وحدة واحدة ، مولودًا حيًّا ، ناضج الملامح ، مكتمل البنـــيان ، يتفجر قوّة ، ويفيض حيوية !

قصة « أهل الهوى » إذن دورة واحدة ، تبدأ من لحظة بزوغ الفتى من فوهـــة قبو يفتح على (حارة) ، فإذا نحن فى عالم يحتدم (بالأهواء) ، ويجيش بالصـــراعات ، التى تتصاعد لفترة حتى تبلغ ذروتها ، ثم إذا بها تهدأ وتذوى ، كما كل شىء فى (الحياة) ، لتنتهى ثانية إلى فوهة القبو ذاتها ، والفتى متشح بالسواد ، مغادرًا إلى الأبد !

أعباء الراوى

مَلْمَحٌ آخر يرتبط بالبناء الفنى ، هو (دور) الراوى الخارجى العليم بكل شىء ، ففى الوقت الذى كان فيه الراوى فى رواية « ما وراء العشق » يسرد الأحداث ويتابع ما يجرى وكأنه يحمل كاميرا تصوّر ما يجرى وتنقل ما يقال، وبـــرغم أنه استمر يقوم بهذا الدور (التقليدى) ، إلاّ إن (التهذيب) امتد إليه

فى قصـــة « أهل الهوى » مُوَسَّعًا ومطوَّرًا ؛ ليتجاوز هذا الإطار ، متحملاً أعباء أخرى ، بدت تارةً وهو يضع ما يجرى من أحداث وسط إطارها الأكبر مـــن حركة الكون ، كما حدث فى مشهد الافتتاح لحظة بزوغ الفتى زاحفًا على أربع من فوهة القبر ، وذلك « **فى صباح باكر مشرق بنور الربيع الصافى، والحيـــاة تـــدب مـــتدفقة فى الحوانيت على الجانبين وفوق عربات اليد ونوافذ الـــبيوت المتلاصـــقة العـــتيقة ، والسماء تعلو فوق كل شىء سقفًا من الزرقة الرائقة** » . وظهرت تارةً أخرى وهو يتفحص الملامح بشكل كاشف لأعماق الشخصية ، مثلما حدث مع نعمة الله حين واصلت تفرّسها فى الفتى « **حتى وضـــح فى وجههـــا ذلـــك المزيج الغريب المكوّن من قوة مخيفة وأنوثة ناضجة مكشوفة** » ، ثم قالت « **بنبرة خبير** » فى استكناه حقيقة البشر ، وذلك حين توصـــلت إلى أنـــه « **ابن ناس** » (وهو تعبير دارج يطلق على من لا ينتمى إلى العامـــة ، بـــل إلى طـــبقة خاصة) ، وهو ما رآه وأيده كلٌّ من حلومة الجحش ورياض الدبش : « **إنه شاب فى الحلقة الثالثة ، ناعم البشرة ، مهذب الملامـــح ، أبعد ما يكون عن الوجوه الكالحة المعهودة** » ، ومثلما حدث للفتى بعد أن ضُمِّدَت جراح رأسه وسُتِرَ عُرْيُهُ بجلباب قديم ، فإذا هو « **بدلاً من أن يذهب إلى حال سبيله ، هام على وجهه فى الحارة مثل كلب ضال بنظرة خائفة مستطلعة ، تعكس من الداخل خواءً وحيرة ، ولا تعـــرف لنفسها هدفـــًا** » ، و « **أمـــا هويته المفقودة فلم تسترد ، ومضت هوية جديدة تستكشف الوجود من حوله بدهشـــة ثابتة ، مستهترة بالتقـــاليد والحياء والنفاق ، لائذة بغرائزها المـــتحفزة** » ، وبعـــــد أن أفسحت لـــه المرأة مكانًا للعمل لديها فى وكالة الحديـــد ، « **بدا غريزةً مجسدةً هَيم فى غابة من نفايات الحديد** » . كما كان

الـــراوى تـــارةً (ثالثة) ينسحب تمامًا ويفسح المجال عندما تتأزم الأمور أمام الفتى ؛ ليعبّر عن مكنون ذاته بضمير المتكلم . « **وعلم فيما علم بما ضاع من ماضـــيه . أى فرد يجهل مستقبله ، أمّا أنا فأجهل ماضيَّ ومستقبلى معًا . ماض ليـــس بالقصـــير ، وحَفَلَ ولا شك بأشياء وأشياء** » . كما كان الراوى ، من ناحيـــة رابعـــة ، وهو الأهم ، حاملاً لخبرات أجيال متعاقبة ، مما منحه تلك القدرة على إيجاز خبراته المتوارثة ؛ ليضعها أمامنا كقرّاء حتى يمهّد لما سيأتى مـــن نـــتائج : « **كثيرون يعيشون بجراح دفينة حفرتها فى قلوبهم أظافر المرأة . حظـــى مـــن حظى بالعشق حين جادت به وتجرعوا الهجر حين هجرت . وعند ظهـــور فـــتى جديـــد يختال فى أبّهة النصر، يتعزون عن الأسى بتربّص النهاية المحـــتومة. إنها دائمًا تتربص هناك .. لا دافع لها ولا مهرب منها** » . وقد يبدو الـــراوى تارةً خامسةً (مشفقًا) على الشخصية ، متلمسًا العذر لها ، مُرْجعًا مـــا يحدث إلى ضعف البشـــر أمام شهواتهم ، « **ولكن متى تخمد نيران تلك الشـــهوة الجامحـــة ؟!** » . وأيضًـــا حين يخاطب الفتى مستنكرًا عدم انصياعه لنصيحة مخلصة بالابتعاد عن المرأة ، بل يراه مستعجلاً الإقبال على التجربة : « **أَوَقَعْتَ فى قبضة قدرك ؟!** » .

مُفْتَتَحٌ مُوحٍ

بعـــد أن انتقلت أضواء الحكى من مسارها القديم فى رواية « ما وراء العشق » ، وتكثفت على مرتكز البناء الجديد ، وهو (علاقة الهوى) بين الفتى فـــاقد الذاكـــرة والمـــرأة القوية ، كان لابد أن يواكب هذا الانتقال عملية (تهذيب) للجزء الذى أبقى عليه نجيب محفوظ والخاص بتلك العلاقة .

ويمكـــن أن نـــأخذ (المفتـــتح) كمثال تطبيقى لهذا التهذيب ، بادئين مـــن رواية « ما وراء العشق » ، لنجد أنه يبدأ من نهاية الفصل رقم (١٢) بعـــد أن ولج الفـــتى القـــبو ، و « **هوت فوق رأسه ضربة غليظة فغاب عن الوجود** » ، ليبدأ الفصل (١٣) وقد فقد الفتى ذاكرته ، وسنقوم بعرض هذا المفتتح ، برغم طوله ، بعد أن نجرى عليه عملية (تقطيع لفقراته) يتم إيرادها عـــلى شـــكلٍ متسلسِل ، محافظين على نفس تتابعها ، وذلك بغرض تحليل وحصـــر (الأفعـــال) الـــتى تمت ، وما صاحبها من (مشاعر) أو (أفكار) ، فى محاولـــة لتفهم (آلية الحركة) فى هذا الجزء ، ورصد (الإيقاع) الخاص به ؛ حـــتى يسهل اكتشاف ما يجب (تهذيبه) للوصول إلى المفتتح الجديد من قصة « أهـــل الهوى » . علمًا بأن هذا المفتتح يتكون من جزأين : الأول (داخل القبو) ، والثانى (خارج القبو فى الحارة) .

● **أمّا الجزء الأول (داخل القبو) فكان كما يلى :**

- مبتدأ بواسطة الراوى ، الذى ينقل تدريجيًّا زاوية رؤيته : « **ظلّ ملقى على الأرض غائـــبًا عـــن الوجود حتى فتح عينيه عند الضحى . ثمة شبْه ظلمة وأرض حجـــرية . ثمة جدار غريب ضارب للسواد قُدَّ من أحجار ضخمة . أى مكان ؟** » .

أول فعل وما صاحبه من شعور : « **رفع رأسه ، فشعر فى مؤخره بألم** » .

- ثانى فعل وشعور وإدراك : « **نهض مستندًا إلى راحتيه ، فنظر فيما حوله. إنه يرى بمَشَقَّة ، ولكنه أدرك أنه فى قبو مسقوف ، سقفه –كجدرانه– مقدود من الأحجار الضخمة ، ذى مدخلين مخرجين** » .

- دهشــــة وتســـاؤل : « ولكن ماذا جاء به ؟؟ .. من هو ؟ ، لا يظفر بأى جواب » .

- ثـــالث فعل وإدراك : « تَحَسَّسَ موضع الألم فوجد وَرَمًا ، وفى الحال رأى نفسه لأول مرّة . إنه عارٍ تمامًا إلا من سروال يغطى عورته » .

- دهشة وتساؤل : « كيف ومتى حدث ذلك ؟ . من هو ؟ » .

- أول تَمَـــاسّ مـــع العالم الخارجى : « مر به أناس ولكن لم يُعِرْهُ أحدٌ نظرة واحدة » .

- حـــيرة ويأس : « تخلى عنه الأمل فى أن يظفر بلمحة من نور هاد . خرس الماضى والحاضر . كل شىء أخرس محتفظ بأسراره » .

- تفسير ما حـــدث له بواسطة شحاذ من العـــالم الخارجى : « وندت عن الأرض حـــركة . فهض كائن بشرى كأنما خُلِقَ لِتَوِّهِ من الأرض . تقدم فى أسمال بالية ناشرًا رائحة عفنة . سأله وهو يمر به :

- ما زلت حيًّا ؟

وضحك ضحكة كريهة وقال :

- ضربوك وسرقوك ، تعيش وتاخد غيرها ..

ومضى إلى الحارة وهو يصيح : « لله يا محسنين .. » .

- اســـتنتاج وحركة : « لا يمكن أن يبقى فى موقفه إلى الأبد . تحرك فى حذر نحو الحارة » .

– إدراك : « **أى فــراغ هذا .. أىُّ فراغ وظلام يطمسان أعماقه ! لكنه حىّ يشبه هؤلاء الذين يتجاهلونه** » .

ويُلاحَظ أن هذا الجزء يمثل موقف (يقظة) بعد غياب عن الوعى ، ومن ثَمَّ محاولة تفهّم حالته والتعرّف على ما حوله ، وقد انقسمت هذه المحاولة إلى شِقّيْن : رؤى خارجية لما حوله (شبه ظلمة ، أرض حجرية ، جدار غريب، قبو مسقوف) ، وإلى جسمه (ألم فى مؤخرة رأسه ، وَرَم ، عُرْى) ، انعكاس مـــا يرى على ذاته الداخلية ، وبزوغ أسئلة (أين هو ؟ ماذا جاء به ؟ كيف ومـــتى حدث ؟) ، والتوصل إلى نتائج (أى فراغ وظلام يطمسان أعماقه ! لكـــنه حـــى) ، واتخاذ قرار بالفعل والحركة (لا يمكن أن يبقى ، تحرك نحو الحارة) .

وهنا يُلاحَظ

– يغـــلب عـــلى هذا الجزء الكمون والسكون ، ولعل هذا ما أدّى إلى بطء الإيقاع ، والرتابة ، وربما الإملال !

– لم يُضِفْ جديدًا للقارئ ما تم (الإخبار) به من معلومات ، سواء بواسطة الــراوى (غياب الفتى عن الوعى) ، أو تفسير ما حدث بواسطة شخص خارجى ؛ لأنه كان معروفًا فعلاً للقارئ ، المتابع للامتداد السابق !

– لم يكن ترتيب آخِر فقرتين موفقًا ، لأن (إدراك) أنه حى ، منطقيًا ، يسبق اتخاذ (قرار) بعدم البقاء ، ومن ثَمَّ تنفيذ (فعل) الحركة إلى الحارة !

– تعبير « **وفى الحال رأى نفسه لأول مرة . إنه عارٍ تمامًا إلاّ من سروال يغطى عورتــه** » لم يكـــن تعبيرًا موفقًا ، لأن العُرْى هنا فعل (اكتشاف) وليس

مشاهدة ، وهو أيضًا تعبير (مكبوح) بكابح أخلاقى ؛ لأنهم إذا كانوا قد اعتدوا عليه ، فلماذا يتركون له سروالاً يغطى عورته ؟! الغطاء إذن غطاء (أخلاقـــى) ، ولم يكـــن فنيًا ؛ لأن المنطق كان يتطلب أن يكون العُرْى كاملاً ، وهو ما سيستدركه نجيب محفوظ فعلاً بالتهذيب !

- لم يكـــن منطقيًّا لشخص تعرّض لحادث اعتداء أدّى إلى فقدان ذاكرته ، أن يعمل ذهنه بدرجة عالية من الإحاطة والوعى ، حتى يتوصل بيسر إلى أن القـــبو « **ذى مدخـــلين مخرجين** » ، بمعنى أن المدخل من أحد الجانبين يعتبر مخرجًا ، والعكس صحيح !

- كـــان هـــذا الجزء ضروريًّا فى ظل الامتداد والاستمرارية لرواية «ما وراء العشـــق » ؛ لأنه كان يشكّل (نقطة تحوّل) ، أو مرحلة انتقال بين ماضٍ انقضى وحاضر جديد يتشكّل . وهو ما يصبح تمهيدًا أو امتدادًا لا لزوم لـــه لمنشأ (علاقة الهوى) ، وهو ما سيحذفه فعلاً نجيب محفوظ من خلال عمـــلية الـــتهذيب ، وإن أبقى فقط على مشهد العُرْى ؛ لأهميته كملمح أساسى للفتى عند بزوغه فى الحارة لأول مرة !

● **أمـــا الجزء الثانى (خارج القبو فى الحـــارة) فكان (تقطيع فقراته) كما يلى :**

- نظرة وإدراك : « **توقف عند مدخل القبو . مدّ عينيه نحو الحارة . ثمة حياة صاخبة . أَوْجُهٌ تظهر فى النوافذ وتختفى . دكاكين على الصفين . عربات يد وعـــربات نقل تذهب وتجىء . باعة ينادون . أناس يتضاحكون ، يتبادلون الجِدَّ والهَزْل . آخرون يتضاربون . رجل يجرى بأنف دامٍ وهو يصرخ :**

- **بلا سبب .. يتقاتلون بلا سبب ..**

الأصـــوات تتجمع وتنداح وتفور تحت أشعة الشمس . حركة جنونية لا معنى لها ، ولكنها تبعث على الخوف » .

- موقـــف فلســـفى وجودى : « والناس يمرّون به دون أن يلقوا عليه نظرة واحـــدة أو يلمحونه بلا أدنى اكتراث ، إنه شىء ، مجرد شىء ، كلا ، إنه لا شـــىء . ولـــن يستطيع أن يبقى فى عزلته المرعبة إلى الأبد . إنه فى أشد الحاجـــة إلى أن يدخـــل فى أعـــين الناس كما يدخلون فى عينيه ، أن يُبعث من موته بأى حال وبأى ثمن . ثم إنه رغم ألمه يشعر بعطش وجوع ، عليه أن يثبت أنه حى ، ولن يَتَأَتَّى ذلك إلاّ باعتراف الآخرين » .

- التأرجح بين الحلم واليقظة : « ربّما يكون الأمر كله حلمًا مزعجًا ، وحتى فى تلك الحال فلابد أن يصحو » .

- التحول وأول تعرّف على المعلمة عبلة : « واعتاد الألم ، ولكن زاد الجوع والعطـــش . وترامت إلى أنفه رائحة طيبة ، عرف مصدرها فى صحن طعام على خوان جلست إليه امرأة تأكل . جلست المرأة أمام دكان خردة تتناول إفطارها ، مقبلة على الطعام بحيوية وتصميم ونَهَم ، وبين حين وآخر تعتصر بالمـــاء من قلة حمراء . امرأة هائلة فى جسامتها ، قوية مثل مصارع ، ريانة الوجـــه ، كبيرة القسمات ، تلبس مثل الرجال جلبابًا وطاقية ، وفى قدميها الغليظين مركوب » .

- الانجذاب إلى الطعام : « مضى يقترب من الدكان مجذوبًا برائحة الطعمية حتى وقف على بعد خطوات » .

- رد فعـــل المرأة : « لحظته المرأة ، فالتفتت نحوه بعنف يتوافق مع عَمْلَقَتِها، وهَمَّتْ بنَهْرِهِ وطَرْدِه، ولكنّ وجهه جذب عينيها باهتمام فسكن انفعالُها» .

- مشاعر المرأة عند رؤية وجهه : « **تولتها الدهشة . ليس الوجه بوجه شحاذ أو متشرد مِمَّن يأوون إلى القبو . وجه وسيم برىء ذاهل . ماذا يريد وماذا عَرَاه ؟** » .

- رد فعل الآخرين : « **وشاركها مشاعرها أقربُ الجيران لها : رياض الدبش الكَوّاء البلدى وحلومة الجحش الفَوّال . قال رياض :**

- ليس حيوانًا كالآخرين !

فرفع عبدون فرجلة رأسه عن الخردة التى كان ينقلها إلى عربة يد منتبهًا إلى اهتمام معلمته بغيظ وقال :

- ما هو إلا شحاذ أو مجنون ، انظروا إلى عينيه !

قالت له المعلمة بخشونة :

- استمر فى عملك » .

يعتبر هذا الجزء استمرارًا لمحاولة الفتى فى تفهّم حالته الخاصة (الاعتياد على الألم ، الشعور بالجوع والعطش ، بلورة حالته فى موقف فلسفى وجودى ، أو هو حلم مزعج يجب أن يصحو منه) ، والتعرّف على ما حوله (الحياة فى الحارة ، رائحة الطعام تجذبه إلى الشخصية الرئيسية والشخصيات الأخرى) .

وهنا يلاحظ

يبدو فى هذا الجزء (أولُ) بزوغ للفتى فى (الحارة) ، و(أول) تَمَاسّ له مع عالمها ، و(أول) لقاء مع المرأة القوية ، وكلها عناصر ربّما كانت حافزةً

لـــنجيب محفوظ حتى يجعل من هذا الجزء (مفتتحًا) لمعالجته الجديدة فى قصة « أهل الهوى » !

ولكن ، ظهرت فى ذات الوقت عناصر أخرى مناوئة ، منها ما يتطلب الحذف أو يستدعى العلاج ، مثل :

- لم يكـــن مـــنطقيًّا أمـــام فتى يتعرّف على ملامح مكان يراه للمرة الأولى أن يصـــل إلى بـــلورة رؤية (حركة جنونية لا معنى لها) ، أو أن يتوصل إلى نتـــيجة عامـــة أو محصلة مشاهدات (ثمة حياة صاخبة) . فإذا أضفنا إلى ذلك حالته الصحية المتدهورة ، وما يصاحب فقدان الذاكرة من بلبلة وتشـــتت ، تصـــبح كـــلها عوامل لا تساعده على التوصل إلى خلاصة الخبرات تلك !

وإذا كـــان هـــو قد توصّل إلى ذلك ، وهو ما لم يكن مقبولاً فى بداية تَمَاسّـــه مع الحارة ، لذلك يصبح من غير المقبول أيضًا أن يوصّل إلى القارئ محصـــلة خبرة للحياة بواسطة شخصٍ مّا مجهول ، وهو رجل يجرى بأنفٍ دامٍ صارخًا : « **بلا سبب .. يتقاتلون بلا سبب** » !

وهو ما سيتخلص منه نجيب محفوظ بالحذف من خلال عملية التهذيب !

- ولم يكن منطقيًّا أيضًا أن ينصرف تفكير الفتى وسط إصاباته البالغة ومعاناته مـــن فقـــدان الذاكـــرة ، إلى فلسفة موقفه بشكل وجودى ، يعلو على مســـتوى الموقف وعلى مستوى تحصيله الثقافى الذى توقف عند الثانوية العامة !

وهو ما عالجه نجيب محفوظ بالحذف أيضًا من خلال عملية التهذيب !

- من ناحية أخرى ، يلاحظ أنه تم إغفال حالته الصحية المتدهورة التى أوصلته إلى فقدان الذاكرة ، استنادًا إلى حجّة (اعتياد الألم) !

وهو ما عالجه نجيب محفوظ من خلال عملية التهذيب .

***

والآن ، لننظر كيف أبدع نجيب محفوظ (مفتتح) المعالجة الجديدة فى قصة « **أهل الهوى** » :

« **من فوّهة القبو دائمة الظلمة زحف على أربع . زحف فى بطء وتخاذُل المريض المتهالك . مدّ ذراعه إلى جدار بيت يتكئ عليه ليقف فى عناء مترنحًا ، تاركًا تأوّهاته المتقطعة تتلاحق فى وهن . فى صباح باكر مشرق بنور الربيع الصافى، والحياة تدب متدفقة فى الحوانيت على الجانبين، وفوق عربات اليد ونوافذ البيوت المتلاصقة العتيقة ، والسماء تعلو فوق كل شىء سقفًا من الزرقة الرائقة ، بدا عاريًا تمامًا ، فلفت الأنظار ، خاصةً أنظار الأقربين ، نعمة الله الفنجرى تاجرة الخردة ، رياض الدبش الكوّاء البلدى ، وحلومة الجحش بيّاع الفول . تفرست نعمة الله فى منظره من مجلسها فوق الكرسى الخشبى أمام وكالة الخردة وجسمها العملاق ساكن فى جلبابها الرجالى الأزرق ، وتمتمت :**

- يافتاح يا عليم ! » .

يتكوّن هذا المفتتح من مشهدين يقعان فى أربع حركات . الحركة الأولى : بزوغ كائنٍ مّا غير مُعَرَّف الهوية « **من فوهة** » : مخرج ، مَعْبَر «**القبو**» : البؤرة ، المركز ، الملجأ ، وقد يرمز لرحم الأم « **دائم الظلمة** » ، كامن ، داخلى ، خفى ، لامْرِئٍ « **زحف على أربع** » كنايةً عن ميلاد ،

« **زحـــف فى بـــطءٍ وتَخاذُلِ المريض المتهالك** » كما الوليد الذى استنــزفته أشـــهر الحمل ، « **مدّ ذراعه إلى جدار بيت يتكئ عليه ، ليقف فى عناء مترنحًا تاركًـــا تأوّهاته المتقطعة تتلاحق فى وهن** » ، كما الطفل يتلمّس أركان العالم الجديد الذى قُذف إليه ، تلاحقه صرخاته العاجزة المتلاحقة !

هـــذه الحركة الأولى من المشهد الأول هى حركة مولد كائن جديد ، تقابـــلها حـــركة مواكبة من العالم الخارجى ، فإذا الطبيعة فَرِحَة « **فى صباح باكـــر** » جاء فى أعقاب ليل طويل « **مشرق بنور الربيع الصافى** » بعد طول إظـــلام . ذروة سطوع بنور الربيع ، أصفى مواسم العام ، وإذا الحياة منبعثة فى المكان ، وكأنما على موعد « **والحياة تدبّ متدفقة فى الحوانيت على الجانبين وفـــوق عربات اليد ونوافذ البيوت العتيقة** » ، فى حين كانت الإرادة الإلهية هـــناك فى العُلا ، تهيمن على كل شىء بتلك الطاقة (الروحانية) التى تعتمد عـــلى المعـــرفة والفهم الواعى والنضج ، وتوحى بقيم الإخلاص والأمانة ، « **والسماء تعلو فوق كل شىء سقفًا من الزرقة الرائقة** » .

وانظـــر إلى بلاغة التعبير حين تُلْهِى (حركة الميلاد) البشر وهم يتابعون فيها معجزة الخَلْق ، ثم يأتى (العُرْى) تاليًا ، ليتكشّـــف ويلفت الانتباه ، وهو مـــا ورد فى الحركة الأولى من المشهد الثانى « **بدا عاريًا تمامًا** » . يعكـــس العُـــرْى – هنا – معانى شتى ؛ فقد يكون قد تمّ رغمًا عنه إلى درجة كشفت ما خفى من أمره ، وقد يعكس العُرْى رغبة فى البدء من جديد ، بعد أن تجرّد من ملابس الدور (أو الشخصية) السابق ، بحثًا عن ذاته الحقيقية . وما يرجح هـــذا التفســـير بزوغُه من ظلام فوّهة القبو إلى نور الحارة الخارجى ، كأنها محاولة لرفع الحجاب عما استتر من أمره !

عـــندئذ يحدث رد فعل طبيعى من الحاضرين ، لتتركز الأضواء مباشرةً على الشخصية العملاقة المقابلة « نعمة الله الفنجرى » تاجرة الخردة ، ويأتى فى أعطافها أكبر تابعين لها : رياض الدبش الكَوّاء البلدى ، وحلومة الجحش بَيّاع الفول . وإذا هى جالسة على كرسى خشبى أمام الوكالة ، كما العرش، مُسْـتَكِنَّةٌ فى جلـباب (رجـالىّ) ، مُتَقَمِّصَةً شخصيةَ رجل بما يعكس القوة والسـطوة (أزرق) ينـبئ عـن طاقة روحية رهيبة كامنة . وإذا هى تتمتم بكلمتين فقط من التعابير العامية البليغة : « **يافتاح يا عليم !** » ، وهى استعاذةٌ دَهِشَـة باسم الإله الذى لديه قدرة بَدء وخَلْق يوم جديد من عدم، ملاحقة باستغاثة بمن يمتلك علم المجهول وما خَفِىَ من أمرنا !

هذا (مفتتح) كاشف لمسرح الرواية الأساسى (الحارة) لحظةَ بزوغ الفتى (لأول) مرّة ، وفى (أول) تَمَاسّ مع هذا الواقع ، حين يقابل أيضًا مباشرةً المرأة القوية (لأول) مرة !

يتأكد ، فى هذا المفتتح أيضًا ، ومنذ اللحظة (الأولى) ، وضوح اهتمام نعمـة الله بـالفتى ، وهو ما بدا بشكل سافر وهى تتفرس فيه ، كما الصياد الماهر عند ظهور فريسة أمامه حين يبدأ حساباته ، فَتَجلَّى على وجهها ذلك المـزيج الغريب من قوة مخيفة وأنوثة ناضجة مكشوفة ، لتتوصّل إلى (حُكم) تعلـنه بأنه « **ابن ناس** » ، ففهم الرجلان اللذان خَبرَا عالمها - رياض الدبش وحلومة الجحش - أنها اختارته ، فتبادلا نظرة اتفاق ، ترتب عليها أن أعادا التطلّع إلى القادم بمنظور جديد ، بصفته العاشق المنتظر !

هنا (إيقاع) سريع ، يعتمد على (فعل) مكثف ، يدفع بالحركة إلى مسار الفعـل الرئيسـى فى القصـة - وهو (علاقة الهوى) بين الفتى المجهول والمرأة الراسخة - إلى الأمام ، متدفقًا ، هادرًا ، متناميًا نحو مصبه الأخير !

(٢) **شخصيات حية**

امـــتد التهذيب أيضًا إلى الشخصيات حتى تدب فيها الحياة ، فتمضى فى مسارها بنشاط وحيوية ، بدءًا من الشخصيتين الرئيسيتين . ففى حين كان الفـــتى فى رواية « ما وراء العشق » قد « **عُرف باسم عبد الله القبو من ناحية باعتبار أن عبد الله اســـم مَن لا اســـم له ، ومن ناحية ثانية باعتباره قادمًا من القـــبو** » ، فإننا فى قصة « أهل الهوى » نجد أن المرأة القوية ، حين « **سمعت عبدون فرجلة يدعوه بالمجنون ، فنهرته قائلة بنبرة آمرة :**

– **إنه يدعى عبد الله !** » .

فى رواية « ما وراء العشق » عَرَفَ – أو تَعَارَفَ – الناس (غير محددى الهويـــة ، والذيـــن قد يكونوا أهل الحارة) على تسميته عبد الله القبو ، أمّا فى قصـــة « أهـــل الهوى » فقد دعته المرأة (بنفسها) باسم عبد الله ، فصار معروفًا به . فى الأولى (علّل) الراوى سبب التسمية ، أما الثانية فوضعها نجيب محفـــوظ وسط سياق فنى مكثف ، عندما اختزل الحوار بدلاً من الثرثرة بين العـــامل عـــبدون فرجلة (الذى اعتبر الفتى منافسًا له على المرأة) والمـــرأة ، وذلك حين دعاه عبدون بالمجنون ، فرأت المرأة كرَدّ فعل لاتهام العامل ضرورةَ تسميته خشيةَ أن يلتصق به لقب مجنون .

هناك انطلاق من جو عام .. هنا تخصيص وتركيز يعكس اهتمام المرأة حتى فى هذه الجزئية التفصيلية الصغيرة !

وفى الوقـــت الـــذى كانت المرأة فى رواية « ما وراء العشق » تلقب بالمعلمة عبلة كروان صاحبة دكان خردة ، فإننا نجدها فى قصة **«أهل الهوى»** قـــد أصبحت « **نعمة الله الفنجرى** » صاحبة وكالة خردة . فى الأولى يضفى

لقب المعلمة ، الذى يسبق اسمها ، عليها شراسة وظلالاً واقعية تنحط بالشخصية ، وهو ما يتعارض مع لقب كروان الذى يوحى بالرقّة والعذوبة ، فى حين أنه فى الثانية « نعمة الله » ، بكسر النون ، ويعنى ما أعطاه الله للعبد مما لا يمكن لغيره أن يعطيه ، وهو هنا هبة الجمال ، منسوبة إلى لقب الفنجرى ، الذى يعنى بالعامية المصرية إسرافًا فى الإنفاق بغير حساب . فى الرواية لم يتم توظيف اللقب والاسم جيدًا ، أما فى القصة فكل شىء محسوب بدقة ، حتى أننا إذا ما وضعنا الفتى عبد الله أمام المرأة نعمة الله الفنجرى ، سيبدو الأمر وكأننا إزاء لقاء غير متكافئ حتى عند هذا المستوى، فبرغم أن الله خلقهما ، إلا إنها تتميز عنه بنعمة الجمال ، التى تنفق منها بغير حساب !

***

هناك أربع شخصيات مساعدة ظهرت فى رواية «ما وراء العشق» واستمر ظهورها فى قصة « أهل الهوى » ، وإن استبعد نجيب محفوظ كثيرًا من ثرثراتها ، وأبرزها فى لحظة حركة وفعل ، اثنان منها استمرا بنفس ملامحهما بين العملين ، وهما : « رياض الدبش » الكَوّاء البلدى و « حلومة الجحش » الفَوّال ، اللذان سبق أن نالا حظوةً لدى المرأة كلٌّ فى دوره ، وتمرّغا فى نعيمها حتى هجرتهما . أما الثالث فهو الشيخ جابر عبد المعين إمام الزاوية ، الذى ظهر ليلقن الفتى دروس الدين ، وهو ما تم التركيز عليه فى رواية « ما وراء العشق » ، وهو نفس الدور الذى قام به فى قصة « أهل الهوى » ، ولكن بعد أن تم تعميق رسم شخصيته ، إذا به يتلقى من المرأة معونة منتظمة له وللزاوية فى أيام محددة ، لذلك أصبح من التابعين لها ، بل تفاقم دوره حتى أصبح عينًا لها على سكان الحارة !

رابـــع الشخصيات المساعدة هو الشاب « عبدون فرجلة » ، الذى بدا فى روايـــة «مـــا وراء العشـــق » فى عمر أحفاد المرأة القوية ، يعمل عندها فى دكـــان الخـــردة ، ويفترض أن يكون عشيقها . وانظر إلى تعبير إحدى الشخصـــيات عن مصير هذه العلاقة بشكل (مباشر) : « **العلاقـــة بينها وبين شـــاب يصـــغرها مثل عبدون فرجلة ضارة بالصحة ، ضارة بصحة الأصغر ، لذلـــك سيهلك عبدون عما قليل** » ، لكن الحقيقة أنه كان على الطريق لينال تـــلك الحظوة لولا ظهور الوافد الجديد ، لذلك يحقد عليه ويستغل أى فرصة للاحـــتكاك به ، حتى وقعت الواقعة وانتهى الأمر بقتله على يد الوافد الجديد عـــبد الله القـــبو ، وحين عرفت المرأة حذّرته بأنه إذا عرفت الحكومة الأمر ستقطع رقبته ، لذلك يجب إخفاء الجثة وإلا هلك ، فانصاع لرأيها ، فأرشدته إلى مكـــان يدفـــنه فيه فى الخلاء بعيدًا عن الحارة ، وهو ما قام به فعلاً . أمّا فى قصـــة « **أهل الهوى** » ، فسيظل عبدون عاملاً فى وكالة الخردة ، وبرغم أن المعـــلمة أفسحت لعبد الله مكانا فى الوكالة ، فإن عبدون تجاهله « **طاويًا حقـــده فى قلبه خوفًا من المعلمة** » ، فتقهقر موقعه بعد أن « **توقع كلاهما – ريـــاض الدبش وحلومة الجحش – دهرًا أن عبدون فرجلة هو المرشح للنعيم ، حتى زحف الفتى المجهول من القبو كالقدر** » .

أضاف نجيب محفوظ ثلاث شخصيات جديدة فى قصة «أهل الهوى» : الأولى هـــى شخصـــية المُمَرِّض « مخلوف زينهم » ، وهو وإن عاش وسط القطيع من سكان الحارة ، فإن وجوده غطى ثغرتين فى بناء رواية « ما وراء العشـــق » . الأولى : إغفال تدهور حالة الفتى الصحية بعد حادث الاعتداء عـــليه فى القـــبو والـــذى أدى إلى فقدانه الذاكـــرة ، فإذا به بعد أن نُزِعَ (مباشـــرةً) من القبو إلى الحارة يظهر : « **وجاء مخلوف زينهم من أمام العيادة**

فى الوســط ؛ فتلقى الشاب بيديه قبل أن يسقط فوق أديم الأرض عاجزًا عن التماســك » ، والممــرض « رجلٌ كَهْل ، فَقَدَ فى الحرب ابنًا فى مثل سنه ، ولا ينقصــه العطف على أى شاب رغم إيلافه مناظر العناء والمرض » ، لذلك أهــداه جلبابًا قديمًا ستر به عُرْيَه ، وسيكون بعد ذلك هو الصاحب المخلص والمرشــد الأمــين للفتى ، أو بمعنى آخر : سيغطى ثغرة ثانية فى بناء الرواية السابق، إذ سيمثل تيارًا مضادًا لجبروت نعمة الله من خلال مساندته لعبد الله، وإن كان فى ذات الوقت يعرف جيدا قدراته وحدود حركته !

وتــبقى هــناك شخصيتان ابتكرهما أيضًا نجيب محفوظ فى قصة « أهل الهــوى » ، وهما يمثلان ذروة العلم والاجتهاد ، وبرغم أنهما يعيشان وسط حلــبة الصــراع فى الحارة ، إلاّ إنهما صارا خارجه . الشخصية الأولى هو الطبيب « **محســن زيان** » ، البدين « **ذو النظرة الخاملة الطيبة** » ، الذى يبدو كمــن ركن إلى السلامة واختارها سبيلاً بحكم طبيعته (الطيبة) ، والشخصية الــثانية هى الشيخ « **كافور** » ، الذى اندرج فى عالم المتصوفين وبلغ أعلى مراتبه ، بعد أن اعتزل الحياة وابتعد عن الناس ، وعاش فى بدروم بيت كرجل من رجال الله ، وبذلك يعتبر وجهًا (مقابلاً) لنعمة الله الفنجرى، فبقدر إقبالها عــلى الحياة ، وهيمنتها على الواقع ، واغترافها المستمر الذى لا يرتوى من أهوائــه ، بقدر ما تراجع الشيخ ، وعفّ وترفع عن مغريات الدنيا ، ناشدًا رضا المحبوب الأكبر ، حالمًا بنعيمه الروحانى !

ولابد هنا أن ننوّه إلى أن نجيب محفوظ عندما افتتح قصة «أهل الهوى» بــالفتى وهــو يزحف على أربع من القبو إلى الحارة مباشرة ، وقام (بحذف) مرحلة وجوده الأولى تحت القبو فى رواية « ما وراء العشق » ، مركزًا أضواء الحكى مباشرة على جوهر القضية ، ألا وهو العلاقة مع نعمة الله ، فقد دعاه

هـــذا أيضًـــا إلى (حذف) الفترة الأولى من حياته التى عاش فيها تحت القبو واختلط بساكنيه من المتشردين والشحاذين واكتسب طباعهم ، وتعرّف على الفـــتاة « نجفة » ، التى طاردته بعدها طويلاً . لذلك فإن حذف هذا الجزء اقتضى أيضًا (حذف) شخصية « نجفة » بالتبعية !

***

والآن ، من هى تلك المرأة القوية التى فرضت سطوتها على الحارة ؟

أو بمعـــنى آخـــر : كيف رسمها نجيب محفوظ أولاً فى رواية « ما وراء العشق » ، ثم كيف بدت بعد أن قام بتهذيبها فى قصة « أهل الهوى » ؟!

بدت تلك المرأة القوية فى رواية **« ما وراء العشق »** باسم المعلمة عبلة كروان ، وهى **« امرأة هائلة فى جسامتها ، قوية مثل مصارع ، ريانة الوجه ، كـــبيرة القســـمات ، تلبس مثل الرجال جلبابًا وطاقية ، وفى قدميها الغليظين مركوب »**، و **« هى واثقة من نفسها ، قوية راسخة مطمئنة »** ، وهى غنية ، صـــاحبة دكـــان خردة ، أرملة فى الخمسين ، قتل زوجها فى غارة جوية ، **« يحترمونها لا لأنها محترمة ، ولكن لقوتها ونقودها »** ، و **« كل عام تبحث عن رجل جديد »** ، وقد **« رافقت قبل ذلك رياض الدبش الكَوّاء وحلومة الجحش الفَوّال »** ، وكان عبدون فرجلة الذى يشتغل عاملاً لديها فى الدكان مرشحًا للخلافة ، لولا ظهور عبد الله القبو .

وقـــد وردت هذه الملامح بشكل تقليدى ساكن ، إما بواسطة الراوى أو عـــلى لسان نجفة عشيقة عبد الله القبو . أمّا فى قصة **« أهل الهوى »** فقد اختلف الأمر تمامًا ، حين جسّدها نجيب محفوظ شخصية تتفجر قوة وتفيض أنوثة ، وذلك بدءًا من تغيير اسمها إلى « نعمة الله الفنجرى » — كما سبق أن

أشرنا – ثم وهو يراكم ملامحها بأساليب عدة : تارة من خلال (الراوى) وهو يعـبّر عـن بعض صفاتها ، وتارة أخرى من خلال (مواقف) كاشفة لأبعاد شخصيتها وعمق تأثيرها فى الآخرين ، وتارة ثالثة وهى (تبوح) بسر من أسرارها ..

كشف (الراوى) جانبًا من ملامح نعمة الله الفنجرى من خلال سرده ، فجاء حينًا مختصرًا ، مقتضبًا ، مقتصرًا على صفاتها ، فإذا « **جسمها العملاق ساكن فى جلبابها الرجالى الأزرق** » ، وحين رأت الفتى للمرة الأولى عند بزوغه من القبو إلى الحارة ؛ تفرست فيه ، و « **واصلت نعمة الله تفرّسها حتى وضح فى وجهها ذلك المزيج الغريب المكون من قوة مخيفة وأنوثة ناضجة** » ، وإذا هى « **المرأة الرائعة المخيفة** » ، وجاء حينًا آخر شارحًا ، مفسرًا ، موضحًا أسلوب عملها ، عندما خطر على بالها « **الشيخ جابر عبد المعين إمام الزاوية الذى يتلقى المعونة له وللزاوية فى أيام محددة . إنها تغطى طغيانها المخيف بنفحات كرم تسكت بها ذوى الألسن القادرة ، وتمارس فى الدين طقوسًا وثنية، فلا تأبى – رغم جبروتها – أن تؤنس وحدتها الداخلية بالأحجبة والتعاويذ** » .

أما (المواقف) التى كشفت عن بعض (ملامح) شخصيتها ، ومنها أنها (لاذعة) اللسان ، وذلك عندما طلب العامل عبدون فرجلة أن يُطرد الفتى بعيدًا لأنه يستهزئ بهم ، فردت عليه بقسوة : « **طُرِدَت العافية من بدنك !** » .

موقف آخر دال على (قوة) شخصيتها وإحكام قبضتها على مجريات الأمور فى الحارة ، بدا ذلك من خلال حوارها مع الممرض مخلوف زينهم حين أخبرها أنه يسعى لدى الطيبين للتبرع بما يكفى لنشر صورة للفتى فى الجرائد كى يهتدى أهله إليه ، فانظر إلى تطور حوارهما :

« فقالت المرأة بغلظة :

- كُفّ عن ذلك ودع الأمر لى !

فرمقها الكهل بيأس ثم قال :

- لكِ الجزاء الحسن عند الله ..

ومضى نحو العيادة » .

هنا ، أمرها حكم نهائى لا راد لقضائه ، لم يملك الكهل إزاءه إلاّ الرضوخ يائسًا ، لكنه - فى ذات الوقت - كان لابد أن يسايرها منافقًا خشيةَ بطشها ، وكأنّ اهتمامها حسنة تُجْزَى بها نعم الثواب عند الله !

موقف مسايرة مقتضى الحال ، أو منافقة (القوة الباطشة) ؛ درءًا لخطرها وإيثارًا للسلامة ، بدا أيضًا حين لمحت نعمة الله الشيخ جابر عبد المعين إمام الزاوية ينظر إلى عبد الله ، فجرى بينهما الحوار التالى :

« - أعطيته عملاً ورزقًا ..

فقال الشيخ وهو فى أعماقه يخافها ولا يحبها :

- إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا .. » !

هنا آية النفاق حين يلهج اللسان بعكس ما يعتمل فى القلب ، ويختفى الصدق بفعل الخوف ، وحين كلفته بأن يعلمه أمور الدين ، اعترض بأنها مهمة شاقة ، فقالت : « **لا تكن طماعًا ، وحظك محفوظ ، المهم أن تعلمه كيف يخاف ، يكفى هذا** .. » .

هنا قانون يعمل ، لسان قوتها يحذره من التمادى فى الطمع ، وفى ذات الوقـــت تـــلوّح له بحسن الإثابة كمحفز للعمل . وانظر إلى تعقيبه وقد فطن إلى الملعوب الـــذى تخطط له ، وذلك حين « **أدرك لتـــوّه أنها تريده على أن يعـــدّه** » **لهـــا . لعنها فى سرّه واستغفر ربه ، وقال لنفسه إنه ليس من حقه أن يسيء بها الظن استنباطًا من نية لا يعلمها إلاّ الله ، وإن مهمته فى ذاتها خير يستحق عليه المثوبة** » .

لقد وعى الشـــيخ أن ما تريده المرأة مخالف للدين ، لكنه مغلوب على أمره تحت سطوة جبروتها لا يملك إلاّ التنفيذ ، لكن قبول هذا الخطأ يرتد كما الخنجر إلى نحره ، إلى الداخل مدمرًا جزءًا من روحه ، حين يحاول أن يلتمس عذرًا لانكساره بأن (يُؤَوِّل) الأمور وفق ما يبرر موقفه !

أمّـــا (مصـــدر قوة) المرأة ، فقد تكـــشف من الحوار الذى جرى بين الطبيب بعد أن فحص الشاب المصاب ، مع مُمَرِّضه :

« **كدمـــات فى الرأس والجبين نتيجة ضربات شبه قاتلة ، علينا أن نبلغ الشرطة ..**

قال مخلوف زينهم بامتعاض :

– إنهم ذئاب القبو ، وستغضب نعمة الله !

تبادلا نظرة تسليم واحتجاج ، ثم تمتم المُمَرِّض :

– إنهـــم تحت حماية المرأة ، وهم جنودها السريون عند الحاجة ، ولا قِبَلَ لأحد بتحديها ..

فشرع الطبيب فى العلاج وهو يقول :

– ما قيمة حياة تجرى تحت رحمة امرأة كهذه ؟! » .

هنا كَشْف لأحد ملامح القوة الطاغية ، فى اعتمادها على قوى بطش تستخدمها عند الضرورة للتنكيل بأعدائها ، وكان نجيب محفوظ موفقًا غاية التوفيق فى وصف (جنودها) السريين – ساكنى القبو من المشردين والشحاذين ، الذين يعيشون متوحدين فى عالم دون مستوى حياة البشر ، تحكمه الغرائز – بالذئاب ، إيحاءً بالتقابل الكامل بين حيوانات مفترسة تعيش متوحدة تحت القبو ، وقطيع البشر ، الذى يحيا فى الحارة كما الأغنام ، تحت سيطرة نعمة الله !

موقف آخر كاشف لعمق تأثير المرأة فى حياة سكان الحارة ، وتغلغلها إلى أدق تفاصيلها ، وذلك حين تسلل المُمَرِّض مخلوف زينهم إلى الزاوية ، حيث يعلِّم الشيخُ الفتَى تعاليم الدين ، فصلى الممرض المغرب ثم انتحى بالشاب ناحيةً عقب انتهاء الدرس ، عندئذ رأى « **التجهم المشوب بالقلق يغشى وجه الشيخ جابر فغضب** » ؛ لأنه فطن إلى أن سبب هذا التجهم هو خشية الشيخ أن يبلِّغ للمرأة أمر سماحه للممرض بالانفراد بالشاب ، فقال له الممرض :

« – اخشَ ربك وحده !

فتساءل الشيخ بحدة :

– وأنت ألا تخشى المرأة أيضًا ؟

– يمكن أن تستمد من العمامة قوة وليس لى ذلك !

فقال الشيخ :

– لولا المرأة ما كانت الزاوية !

فقال له بأسى :

– إنك تعلم أنها ترعاها من أجل الشيطان .. » !

كما بدت نعمة الله فى مواقف أخرى وهى (تبوح) ببعض أسرارها ، ظهر ذلك تارةً وهى توضح جذورها – وهو ما لم يتطرق إليه نجيب محفوظ وهو يعرض شخصية المعلمة فى رواية « ما وراء العشق » – حين قالت فى قصة « أهل الهوى » : « **إنى سليلة فتوات ، كما كان أول زوج لى فتوة ، فنشأتُ قوية ، ولكنى كنتُ وما زلتُ ذكية ، فسلمتُ بانتهاء عصر الفتونة ، غير أنه لا غنى عن القوة والذكاء** » !

هنا امرأة ورثت القوة عن أهلها من الفتوات ، وحين انتهى عصر الفتونة لم تتمسك بماض انقضى ، بل استوعبت تغيرات الواقع ، ووَظَّفَتْها لحسابها ، فبدلاً من أن تكون القوة نابعة منها ، وظّفت آخرين – ذئاب القبو – كجنود قمْع لها ، فامتلكت القوة دون أن تلوث يديها ، وهذا هو معنى الذكاء من وجهة نظرها !

موقف آخر تعرضه نعمة الله ، حين انفردت بنفسها فى غرفة نومها وراحت تمارس (السحر) ، بعد أن « **ذرّت قبضة من البخور فى مجمرة ، ثم لهجت بابتهالات تستحضر بها ساحرها القديم الذى غادر الدنيا على عهد شبابها الأول** » ، فبَيَّنَ لها (حقيقة) ما تتمتع به ، حين قال : « **القبو يطيعك ، الرجال يخافونك ، شبابك حى ..** » ، مندهشًا من استدعائه وهى ترفل فى هذه النعم ، فأخبرته بعشقها الجديد ، الذى دفع بها «**إلى الجنون من جديد**» ،

وحين حذّرها من المرض مخلوف زينهم ، استَعْدَتْهُ عليه ، حتى يؤذيه بسحره الخفى ليبتعد عن طريق الفتى ؛ لأنها تخاف أن تؤدبه بنفسها فترعب الفتى !

هـــنا قـــد يطرأ سؤال : لماذا أدخل نجيب محفوظ (السحر) فى رسم ملامح المرأة ؟!

ربّما يكون السحر إجابة (مباشرة) لمرتكز ثابت من ملامح المرأة وهو شبابها الدائم ، والذى عبّر عنه حلومة الجحش بحرقة وهو يراها تعدّ عبد الله لنفسها ؛ حين تساءل : « **متى أراها فريسة للزمن ؟!** » .

فـــإذا كـــان (الزمن) سادر على البشر منذ بدء الخليقة وحتى الأزل ، لذلك فإن جمال أى امرأة يبلغ ذروته ، ثم سرعان ما يخبو بتأثير الزمن . أمّا بالنســـبة لـــنعمة الله ، فقد كان هذا القانون معطلاً بسبب السحر ، ولذلك تتمـــتع بجمال دائم وأنوثة متجددة تجتذب أعين الآخرين باستمرار ، حالمين بالاســـتمتاع بنعيمها ، لذلك كان (حلم) حلومة ، يشاركه فيه الآخرون ، أن يـــروها فريســـة للزمن ، يفعل بها ما يجرى على الآخرين ، فيذوى جمالها ويذهب ، حتى تعود امرأة (عادية) تعانى ما يعانيه البشر من ويلات الزمن !

وهـــذا هـــو أحد الجوانب التى هذبها نجيب محفوظ ؛ ليبرّر جمال المرأة وشـــبابها الدائم ، بعد أن تجلّى فى رواية « ما وراء العشق » وجهها عجائبيًّا غير مبرّر !

ويبـــلغ نجيـــب محفوظ ذروة توفيقه فى موقف وامض ، لّماح ، بديع ، جرى بعد أن استخدمت نعمة الله (سحرها) ، فأقعد المرض المرض مخلوف زيـــنهم عن عمله فى عيادة الطبيب ، « **وعُرف فى الحارة أنه أصيب بروماتزم مفصلى شديد ، غير أن الشيخ جابر عبد المعين قال لزوجته :**

- إنه من عمل نعمة الله !

فقالت المرأة مذعورة :

- ليتك لم تَشِ به ..

فغضب الشيخ ولطمها على وجهها لطمة شديدة » !

كلمات الزوجة كلمات موحية ، تعكس أولاً رغبة طيبة فى عدم إيذاء الآخر ، وأملاً بألاّ يكون قد ارتكب ذنب الوشاية ، لكنها تضمر ، فى ذات الوقـــت ، أن أسلوب الوشاية أسلوب يتبعه الشيخ فى علاقته مع نعمة الله . انظـــر إلى عمـــق تأثير (الخوف) حين يحوّل البشر - حتى الشيوخ منهم - مـــن مخلوقات نبيلة متحابّة إلى مخلوقات شائهة يبحث كلٌّ منها عن خلاصه الخاص بارتكاب أحطّ الأفعال . كما يكشف هذا الموقف، من ناحية أخرى، عـــن جانب من جوانب القهر ، فالشيخ مقهور لا يستطيع أن يعترض على المرأة مباشرة خشية بطشها ، فينفّس عن قهره المتراكم بشكل غير مباشر مع زوجـــه وأم ولده ، وربّما عقابًا لها ، لأنها نكأت - دون أن تدرى - جرحًا داميًا يؤرّق ضميره !

وقـــد يَبِينُ وجهٌ آخر لنعمة الله من خلال حوار لها فى لحظة صفو مع عبد الله ، حين سألها :

« - لم لا تعيشين مثل الناس العاديين ؟

فقالت بكبرياء :

- لأننى لست عادية ! » .

هكــذا جسّد نجيب محفوظ فى « نعمة الله الفنجرى » ثلاث شخصيات، الأولى حين جعل منها (نموذجًا) للمرأة فى أقصى وأقوى صورة لها ، فهى شباب حــى وأنوثة متجددة ، بؤرة أهواء لا ترتوى ، مركز إغواء لا ينقضى ، لذلك تجمــح بها الرغبات ويسكنها الهوى . والثانية شخصية (طاغية) تهيمن وتسيطر وتُحكم قبضتها ، فتثير الخوف وتنشر الرعب حتى ينصاع أهل الحارة لأمرها ، فــإذا عَــنَّ لأحدهم أن يعارضها ، فقبضة جنودها السريّين – ذئاب القبو – باطشة مدمرة، وما لم تنله بقوتها تناله بسحرها . والثالثة شخصية ترمز (للدنيا)، الــتى قــد تُقبل على البشر ساعة فتزيّن لهم أن السعادة التى يعيشونها خالدة ، وقد تُدْبِرُ عنهم ساعة أخرى فيحلّ اليأس ويعم الظلام . والأمر فى الحالتين رهن إشارتها ، لا يملك البشر من أمرها شيئًا !

ولأن تــلك الشخصيات الثلاث وليدة يد فنان كبير هو نجيب محفوظ ، فإنها تتكامل جميعًا معًا ، ولا تتنافر ، فى بناء فنى متماسك شديد الإحكام !

* * *

والآن ، من هو الفتى ، ذلك الوافد الجديد إلى الحارة ؟

بمعنى آخر : كيف رسمه نجيب محفوظ أولاً فى رواية «ما وراء العشق»، ثم كيف بدا ، بعد تهذيبه ، فى قصة « أهل الهوى » ؟

لقد تَمَّ رسم شخصية الفتى فى رواية « ما وراء العشق » حين استيقظ (فــاقدًا الذاكرة) ، فوجد نفسه فى قبو خرج منه إلى الحارة ، تارةً من خلال الراوى : « ماذا جاء به ؟ .. من هو » ، « مر به أناس ولكن لم يُعِرْهُ أحدٌ نظرةً واحــدة . تخــلى عــنه الأمل فى أن يظفر بلمحة من نور هاد . خرس الماضى والحاضر . كل شىء أخرس محتفظ بأسراره » ، « أى فراغ هذا .. أى فراغ

وظـــلام يطمســـان أعماقه ؟! » . وتارةً أخرى من خلال عينى المعلمة عبلة كـــروان : « ليـــس الوجه بوجه شحاذ أو متشرد ممن يأوون إلى القبو . وجه وسيم برىء ذاهل » ، أو من خلال تعقيب رياض الجحش الكواء : « ليس حيوانًا كالآخرين ! » ، أو من خلال تعقيب حلومة الجحش الفوّال: « شاب ابن ناس ! » ، أو كما رأته المعلمة مقارنًا بالعامل عبدون فرجلة : « إنه دون العشـــرين مـــثل الشـــاب الغريب » ، أو من خلال متابعة عامة لتطور حاله بواســـطة الراوى : « جاء كثيرون ليشاهدوا المتسوّل الجديد ذا الوجه المليح والعقـــل المفقود » ، و « عُرف باسم عبدالله القبو ، من ناحية باعتبار عبد الله اسم مَن لا اسم له ، ومن ناحية أخرى باعتباره قادمًا من القبو » .

وقد مرّ عبد الله القبو فى رواية « ما وراء العشق » بطوريْن ، هما :

الطور الأول : تحت تأثير حياة سكّان القبو ، وهو ما عبر عنه الراوى بقوله :

« مضـــى يُخلق من جديد على مثال جديد . تم الخَلْق تحت القبو أو فى الخلاء فى وقت فراغه بغير بديل سواء بالنهار أو بالليل . لُقّنَ لغة جديدة، لغة الصعاليك والمتشردين ، واكتسب نفسًا جديدة تسيطر عليها الغريزة وحدها ، رُدّ إلى الوثنية ، ثم إلى العصر الحجرى ، أقرانه يماثلونه فى السن ثم يتدرجون إلى الطفولة ، إنه من أهل القمة ، سبّاق إلى البهيمية والعنف، فإمّـــا أن يـــأكل وإما أن يؤكل ، فى هالة من جامعات الأعقاب ، مثوى الحشرات والروائح الغريبة ، حتى البنت نجفة فمَلاَحتُها غارقة فى الوحل . مجتمع البدائية والفوضى حيث يُمارَس الجنس والعراك فى لحظة واحدة ، ويُـــدار الحوار بالسب وباللعنات ، ويجرى كل شىء بلا حدود ولا قيود فى الســـر والعلانية. غلظ قلبه واخشوشن سلوكه ، وامتلأ رأسه الفارغ بالأوهام والقاذورات » .

وفى ذلك الطور من حياته ، كان « **يستر ظلمات قلبه أمام عبلة كروان فحسب** » .

الغريب فى الأمر ، أن نجيب محفوظ قدّم هذا الطور من وجهة نظر بعض الشباب الذين يرتادون المقهى الذى ينظفه ، « **وخُيل إليه مرة أخرى أنهم ينظرون إليه بعطف مثل عبلة كروان . وما يدرى يومًا إلاّ وأحدهم يشير إليه قائلا :**

– كان من الممكن أن يكون هذا قوة إيجابية نافعة ، محمد عبده أو سيد درويش !

فهتف آخر :

– انظروا إلى يمناه ، ثمة خاتم خطوبة ..

فقال ثالث :

– سرقه ولا شك !

هو الخاتم الذى أشعل معارك كثيرة تحت القبو كلما طمع أحد أقرانه فى استلابه ، ولكنه قوى عنيف يحسن الدفاع عن نفسه » .

ومن خلال هذا الطور عايش نجفة ، وقتل عبدون فرجلة فى عراك ، وغطت عبلة كروان على جريمته !

الطور الثانى : **فى كنف المعلمة عبلة** : بعد أن أذاعت المرأة أن عبدون فرجلة سرق نقودها وهرب ، ثم استخدمته بعد أن تعهّده إمام الزاوية بالتهذيب ؛ لأن « **هذا هو السبيل الوحيد لإمكان التعامل معه** » كما قالت المعلمة . وانظر إلى هذا الطور كما يقدمه الراوى : « **هكذا ألحق**

عبد الله القبو بالعمل فى الدكان . وهكذا بدأ التربية من جديد . وقررتْ أن يجعـــل مـــن الدكان محل إقامته أيضًا لإبعاده عن القبو وأهله ، وأخذ يتحســـن فى مظهره وصحته . قررتْ كذلك أن تثبت شخصيته الجديدة مستعينةً بتسنينه فى الصحة ، وتصويره واستخراج بطاقة شخصية له » ، وحين سمحت له المعلمة أخيرًا بالاقتراب منها ، شاءت أن يكون ذلك فى (الحلال)، « وتم الزواج مثيرًا دهشة شاملة. بات عبد الله القبو رب البيت ومدير الدكان ، ارتوت رغباته الأولية من الجنس والغذاء والكساء والمأوى » ، ولكنه كان يحس أنه « رغم السيادة الظاهرة فالقيود تكبّل يديـــه وقدميـــه . إنه ممنوع من مغادرة الحارة ، ممنوع من الاقتراب من المقهى . حَنَّ أحيانًا إلى التسكّع تحت القبو وفى الخلاء ، ويلمح نجفة أحيانًا عـــند مدخـــل القبو ، ولكنها لا تقترب خطوة خوفًا من المرأة الهائلة . يحاولون إقناعه بأن حياته السابقة بين الصعاليك كانت بخسة ، وأن عليه أن يكفّر عنها ، لكنه ما زال مترددًا » .

وقد أجرى نجيب محفوظ (تهذيبًا) على شخصية الفتى ، حين (حذف) الطـــور الأول من تكوينه الذى تم تحت تأثير سكان القبو ، و(حذف) بالتالى شخصـــية « نجفة » ، وكذلك (حذف) المشهد الذى قدمه بواسطة شباب المقهـــى ، ليـــثير فينا الأسى على ضياعه ، ويوصّل إلينا معلومة حول خاتم خطوبـــة فى يمـــناه أثار كثيرًا من المعارك تحت القبو ؛ لأنه يحسن الدفاع عن نفســـه ، واكـــتفى بالطور الثانى من تربيته الذى تم فى كَنَف المرأة ، ونجح فى ذلك نجاحًا كبيرًا حين اختزل الموقف وكثّف الحركة بدءًا من مفتتح قصة « أهل الهوى » ، فإذا لحظة بزوغه من القبو إلى الحارة هى لحظة تفرّس المرأة

فى شخصه ، ومن ثَمَّ لحظة (اختيار) له ، نال على أثرها رعايتها له ، حتى أنها أطلقت عليه اسم « عبد الله » ، الذى عُرف به بعد ذلك !

هام عبد الله أولاً على وجهه فى الحارة « **مــثل كلب ضال بنظرة خائفة مســتطلعة، تعكس من الداخل خواء وحيرة ولا تعرف لنفسها هدفًا**»، وحين أفسحت نعمة الله له مجالاً للعمل فى الوكالة ، تجلى فى رونق ورشاقة ، « **أما هويته المفقودة فلم تسترد ، ومضت هوية جديدة بدائية تستكشف الوجود من حوله بدهشة ثابتة ، مستهترة بالتقاليد والحياء والنفاق ، لائذة بغرائزها المتحفزة** » ، و « **بدا غريزة مجسّدة تهيم فى غابة من نفايات الحديد** » .

هــنا تكثيف وتركيز . تكثيف لتطوّر حال فتى فاقد الذاكرة ، وتركيز عــلى مجال حركتها الغريزى فى النطاق الأساسى المهم ، وهو نطاق المرأة . وانظر إلى ردّة فعله (المحسوبة فنيًّا) عندما كانت تحلم بمسيرة أخرى تخطط لها بذكــاء : « **سَــرَّتْها نظــراته النهمة البهيمية ، ولغته الصامتة المكشوفة معًا، وحومانــه الحار الجنونى حولها بلا حياء ، حتى قالت لنفسها : لابد من تهذيبه . قوتها الراسخة نفسها اهتزت حيال هوج انفعالاته الجامحة ، فخافت أن يصيبها ســوءٌ مجهــولٌ بين يديه المندفعتين بعنف البراءة العمياء . وقالت لنفسها : إنى أخيف الرجال ؛ ولكن لا أدرى كيف أتعامل مع الزوابع** » ! لذلك دفعت به إلى دروس الديــن على يد شيخ الزاوية ، وأثرت عليه الدروس التى تلقاها ، فدخــل فى مقام من مقامات الحيرة ، وتجلّى التساؤل فى عينيه ، وحين تأكد مــنها مــن صدق الشيخ، اشتدت حيرته ، « **ومضى يعرف الحياء، ويدارى انفعالاتــه ، ويأســف بعد ارتكاب الخطأ** » ، وارتاحت هى « **إلى نمو رغبته فيهــا وعذابه الدفين بالتردد والحياء والخوف بعد أن وسع قلبه الرغبة والعبادة فى آن** » .

وانظـــر إلى (الحـــيرة) وهـــى تفرض همّه الرئيسى على صيغة سؤال ، من خلال حواره مع الشيخ :

« – الله والجنة والنار !

فقال له الشيخ جابر :

– تدبّر ذلك بعقل ناضج تجاوَزَ الطفولة والصبا .

فتساءل فى حيرة :

– والرغبات الجامحة مَن خَلَقَها ؟

فقال الرجل بضيق خفى :

– هذا هو امتحان الإنسان .. » .

وفى أعقاب هذا الموقف ، يستطرد الراوى فى تدعيم (فقدان ذاكرته) : « **وعلم فيما علم بما ضاع من ماضيه** » لينقلب الفتى على ذاته ؛ فجاء حواره لـــلمرة الوحيـــدة بضمير المتكلم : « **أى فرد يجهل مستقبله ، أما أنا فأجهل ماضِيًّ ومستقبلى معًا . ماضٍ ليس بالقصير، وحَفَلَ ولا شك بأشياء وأشياء**» !

هـــنا رهافـــة فى التناول ، عذوبة فى الأداء ، وتطوّر منطقى لشخصية عبد الله دون تعسّف أو افتعال ، **ليجسّد ثلاثة أبعاد : تارةً شخصية فتى (فاقد الذاكرة) حتى يتمثل حسّه الغريزى فى أقوى صوره حين جمح به (الهوى) ، حتى رغـــب فى نعمـــة الله بجماع نفسه ، وأصبح همّه الوحيد أن يصل إليها ويحظى بنعـــيمها . الـــبعد الثانى يجسد علاقة وافد جديد إلى مجتمع الحارة ، رأت قمةُ**

ســلطتها (الحاكمة) فيه مأربًا ؛ فضمته إلى ركابها . والبعد الثالث (يرمز) للإنســان بعد (مولده) ليبدأ رحلة حياته مع (الدنيا) ، تتجاذبه أحلام السعادة الدائمة. فكيف يكون المآل ؟

وكــل تلك أبعاد تتكامل فى شخصية عبد الله ، ولا تتنافر ، وتتضافر مع أبعــاد شخصية نعمة الله المواكِبة ، فى بناء فنى واحد، سامق ، شديد التماسك، شديد الإحكام !

(٣) دورة الأهواء

كيـــف كـــانت علاقة (الهوى) بين الفتى فاقد الذاكرة والمرأة القوية فى رواية « ما وراء العشق » ؟

وكيف قام نجيب محفوظ بتهذيب تلك العلاقة ، جاعلاً منها مرتكزًا ومحورًا فى قصة « أهل الهوى » ؟

فى رواية « ما وراء العشق » رسم نجيب محفوظ علاقة الهوى بين الفتى والمرأة القوية بواسطة استخدام أسلوبين ، تارةً من خلال سرد الراوى ، وتارةً أخرى من خلال ثلاثة مواقف حوارية .

قام (الراوى) أولاً بتتبّع ظهور الفتى المفاجئ فى الحارة ، ورد فعل المرأة تجاه رؤيته ، الذى عكس اهتمامًا خاصـــًا به . حدث ذلك عند أول ظهور لـــه فى الحارة ، حين « **لحظته المرأة ، فالتفتت نحوه بعنف يتوافق مع عملقتها وهمّـــت بـــنهره وطرده ، ولكن وجهه جذب عينيها باهتمام ، فسكن انفعالها وتولتها الدهشة** » ، « **وجه وسيم برىء ذاهل** » ، ثم « **واصلت تناول إفطارها وهى تنظر إلى الشاب الغريب** » . ثم ترجم الراوى اهتمامها إلى فعل ، بعد أن اســـتقر فى الحـــارة ، « **واســـتُخدم فى أعمال النظافة نظيرَ اللقمة والستر ، واستخدمته عبلة كروان أكثر من الآخرين رغم تذمر الصبى عبدون فرجلة** » .

وبقدر ما وضح من تصرفات عبلة كروان أنها (اختارته) ليكون الخليفة الجديد على عرش (الهوى) ، فإن عبد الله لم يكن (الهوى) همّه الأول ، أوضح الـــراوى ذلك فى أكثر من موقف ، فقد كان « **يستر ظلمات قلبه أمام عبلة**

كـــروان فحســـب ، لأنها قوية ، ولأنها غنية ، ولأنها لا تضنّ عليه بشىء من العطف » .

وحين أوضحت له نجفة ، فتاة القبو ، مسار (رحلة الهوى) المتكررة الــتى تقــوم بها المرأة ، فى حوار معه : « **وهى الآن عشيقة عبدون فرجلة ، وهو فى سن أحفادها . رافقت قبل ذلك رياض الدبش الكَوّاء وحلومة الجحش الفَوّال .كل عام تبحـــث عن رجل جديد** » ، فقـــد بَيَّنَتْ له فى ذات الوقت (مـــآل) تــلك الرحــلة ، إذ إن « **العلاقـــة بيـــنها وبين شاب يصغرها مثل عـــبدون فرجلة ضارة بالصحة ، ضارة بصحة الأصغر ، لذلك سيهلك عبدون عما قليل** .. » .

وبقـــدر مـــا كان حديثُها عمليًّا مباشرًا جدًّا ، لأنها كانت تهدف أن يكون له مؤشرًا ونذيرًا، إلاّ إن تفكيره انصرف إلى حلم الوصول والاستقرار؛ « **ولعـــبت الأمـــانى بخياله ، فتمنى أن يحلّ محل عبدون فرجلة ، لا عن حب ، ولكـــن لـــيحظى بالـــلقمة الطيبة والكساء** » ، وإذا هو فى خلال يومِ عملٍ فى دكـــان الخردة ، وقد « **تصبب عرقًا فى يوم حار من أيام الصيف ، وكلما حامت المرأة حوله ، شم عَرَقَها فثارت حواسه . إنها بناءٌ لَحْمِىٌّ مختلف عن جميع النســـاء ، ومخزن للأطعمة الدسمة** » (تعبير غريب كمبرر لاستثارة رجل، حتى لو كان يعتمد على غرائزه وحدها !) .

وترتب على عمله فى دكان الخردة أن تعارك مع عبدون فرجلة، وقتله، وحين علمت ساعدَتْه على إخفاء الجثة فى الخلاء ، وحين عاد واستحم ، دار بينهما الحوار التالى :

« **هل أحل محل عبدون ؟**

- ستحل محله فى الدكان ولكن ليس الآن ، سأنفذ الخطة خطوة خطوة كى لا نثير الريبة .

فسدّد إليها نظرة شرهة . بدت قلقة ، ولكنها لم تستطع إخفاء ارتياحها . سألته :

- اذهب الآن إلى قبوك ..

فسألها بقَحّة وجرأة :

- متى أحل محله فى البيت ؟

فقالت وهى تدارى ابتسامة :

- احذر أن تفسد الطبخة بحماقتك » !

وبعد أن أشاعت فى الحارة أن عبدون سرق أموالها واختفى ، وبعد مضىّ فترة استخدمت فيها أكثر من فرد للعمل فى الدكان ، قرّرت فى حوار مع رياض الدبش أن تستخدمه ؛ لأنه « وارد من أصل طيب » ، ولكن لابد من تهذيبه بدروس فى الدين على يد إمام الزاوية ، حتى يمكن التعامل معه. واستخدمته على هذا الأساس ، وجعلت من الدكان محلاً لعمله وإقامته، وبدأت مرحلة (تربية) جديدة له ، و « أصبح مولعًا بها بطريقته البدائية الخاصة ، مطمئنًا إلى حرصها عليه ، ولكنه لم يَفْقَهْ لصبرها الطويل معنى ، ومرة عند القيلولة حاول أن يشدها بالقوة إلى المخزن . لم تغضب . إنها تُسَرّ دائمًا برغباته الجامحة ، ولكنها تُصِرُّ على مقاومتها . قال لها محتدمًا بفوران شهواته :

- لقد نُسِىَ عبدون تمامًا !

- هذا من حسن حظك .

- لماذا ترفضين ؟

فقالت وهى تُنَوِّمُه بنظرها الدسمة :

- أريد الحلال معك .

- الحلال ؟

- الزواج ..

- افعلى ما بدا لك ولكن أسرعى .. » .

هنا - فى رواية « ما وراء العشق » - امرأة قوية غنية ، اتخذت (مسارًا) معينًا لإشباع شهواتها ، فهى (تختار) من يشبع أهواءها لفترة ، حتى إذا ما استنفدت أغراضها منه و لم يَعُدْ قادرًا على العطاء ، لفظته ، لتُكَرِّرَ ذات الدورة من جديد ، وإن كفلت لها شكلاً (مشروعًا) بالزواج ، وهو ما حدث مع عبد الله ، « وتم الزواج مثيرًا دهشةً شاملة . بات عبد الله القبو رب البيت ومدير الدكان . ارتوت رغباته الأولية من الجنس والغذاء والكساء والمأوى . رأى فى شقة عبلة أناقةً وثراءً وذوقًا لم تَجْرِ له فى خيال . امرأة تحب الحياة حقًّا وتحب المعيشة الطيبة . وفى الدكان تبدو رجلاً قويًّا بكل معنى الكلمة ، أما فى الدار فتنجلى عن امرأة هائلة نهمة شرهة مجنونة بلذائذ الحياة . سرعان ما أدرك عبد الله أنها تحبه أضعاف حبه لها ، ولكنه لم يُخْفِ عنه أنها شيء جديد ، جديد فى الوزن والسن والرائحة ، وفى الكلمات المسحورة أيضًا . وأنها - رغم قوتها - ضعيفة فى حاجتها إليه » .

إذن ، يلاحظ على هذه العلاقة : أن (الهوى) هو ما يشغل المرأة تمامًا ويؤدى إلى تكالبها الكامل عليه لإشباع رغباتها النهمة المجنونة ، فى الوقت

الــذى كـــان (الهوى) يمثل للفتى هدفًا إلى جوار أهداف أخرى فى : الغذاء والكساء والمأوى ، إضافة إلى أنه كان يعى (ضعفها) فى حاجتها إليه !

***

برزت (دورة الأهواء) ، بعد تهذيبها ، فأصبحت مرتكزًا أساسيًّا ومحورًا رئيســيًّا فى قصة « **أهل الهوى** » ، **وصارت تتكون من ثلاث مراحل، الأولى أوردهـــا** (الــراوى) من خلال سرده كمالك للخبرات المتوارثة بين البشر ، والتى تناقلتها الأجيال جيلاً بعد جيل : « **كثيرون يعيشون بجراح دفينة حفرتها فى قلوبهم أظافر المرأة . حظى مَن حظى منهم بالعشق حين جادت به ، وتجرعوا الهجــر حــين هجرت . وعند ظهور فتى جديد يختال فى أبّهة النصر ؛ يَتَعَزُّونَ عــن الأســى بــتربّص النهاية المحتومة . إنها دائمًا تتربص هناك ، لا دافع لها ولا مهرب منها . ولكن متى تخمد نيران تلك الشهوة المتأججة ؟** » .

هـــنا ، تناول الراوى (دورة الأهواء) من منظور الانكسار؛ ربّما لأن السعادة التى تُقبل على العشاق سرعان ما يُمحَى أثرها ، فى حين تدوم آلام الهجـــر .. لذلـــك يكون عزاؤهم لدى رؤية فارس جديد يتغنى بالنصر ، أن الهجر قادم فى الطريق ، لأنه حَتْمٌ كما القضاء يَتَحَيَّنُ الفرصة المناسبة لينقضّ . ولكـــن يـــبقى سؤال (جوهرى) حول كُنْه تلك الشهوة وجذوتها المتأججة دائمًـــا، وهـــو نفس السؤال الذى سبق أن طرحه عبد الله بعد أن نال قبسًا من تعاليم الدين ، وعرف بوجود الله ، والجنة والنار : « **والرغبات الجامحة مَن خَلَقَها ؟** » .

ثم بدت المرحلة الثانية ، من دورة الأهواء ، **حين بَيَّنَها المرض مخلوف زينهم الكهل** ، الذى عرك الحياة كثيرًا ، وذلك فى معرض تبصير عبد الله بما ينتظره ، فقال :

« – إنهـــا صاحبة خطة قديمة متجددة ، سوف تهبك نفسها فتظن نفسك سيد العالمين .

فتورّد وجه الفتى ، وخانه السرور فأضاء به وجهه ، فقال الرجل بحزن :

– لســـتَ الأول ولن تكون الأخير ، سوف تلفظك حتمًا وبلا رحمة ، فتتلاشـــى ســـاعات السعادة الزائفة فى حمأة الهجر الدائم ، وتنضم إلى رَكْب التعساء الكثيرين !

قـــلقت فى عيـــنيه العسليتين نظرة حائرة ، ولكن موجة الفرحة القريبة الراقصة اكتسحت نُذُرَ المصير المخيف المجهول » .

هـــنا (دورة الأهـــواء) فى مَحَكّ التجربة العملية . فتى يعانى من صبابة العشـــق وجَوَى الهوى ، فإذا ما فتح الكهل أمامه باب الأمل وهو يحذّره ، تفتّح مُحَيّاهُ وحزن الشيخ ، ومضى يبصّره بخاتمة الهجر المنتظرة ، فإذا بمشاعره تـــتوزع لفترة بين الخشية من سوء المصير ، وقرب الانفراجة والنصر ، وإذا بفـــرحة قُرب الوصال تكتسح كل ما يعترض سبيلها من صعاب ومخاوف . وحـــين اســـتمر العجوز ناصحًا الفتى بضرورة أن يهجر الحارة فى الحال ، صـــمت ، وقد استخفّه النصر القريب ، فإذا بالرجل يتساءل : « **أوقعتَ فى قبضة قـــدرك** ؟ » ، بمعنى أنه استسلم لقدره بإرادته وأسلس له القياد ، حتى « **ينطلق نحو تجربته المهلكة بحماس دافق** » ، فانصرف وهو يقول مفوّضًا أمره لله : « **الله معك !** » .

ثم جاءت المرحلة الثالثة والأخيرة من دورة الأهواء ، بعد أن خاض عبد الله تجربـــتها ، فاعتلى أسوار قلعتها فارسًا مغوارًا منتصرًا ، « حتى آمن بأن مهجره الجديد ما هو إلاّ موطن للسرور والرحمة ، فشكر الحظ الذى ساقه من المجهـــول إلى القـــبو ، واستخلصه من ماضٍ لا يجوز أن يَأْسَفَ عليه . وانغمس فى الحـــب فى الليالى المذابة فى أقداح القرفة والزنجبيل الحاوية لنفثات السحر ، الداعية لعوالم الخيال والذهول » ، و « انغمس فى الحب حتى قمة رأسه ، وتعلّق بهـــا حتى الجنون ، وألهمته سعادتُه الدوام والخلود ، فاقتنع بكل قواه بصدقها وإخلاصها ووفائها » .

لنـــتوقف هـــنا قـــليلاً أمام فعل « نسى » واشتقاقاته كما وردت فى القصة. لقد ورد فعل (نسى) أولاً حين مرض المرض مخلوف وفكّر عبد الله فى أن يـــزوره ، لكن نعمة الله رفضت أن يفعل ، ثم خففت من وقع أمرها بـــأن فتحت له باب تَحقُّق الحلم ، مدعيةً أن مسكنها فى حاجة للخدمة ، « فنســـى صاحبه » . وكان هذا خطأه الأول ، ففى فَوْرَة العاطفة لا يعمل العقـــل ، ويُنْسَى الصديق ، ووسط فيض السعادة الغامرة ينسى الإنسان كل ما سبق من تحـــذيرات . « وتطايرت أصـــداء ما قيل له عنها ، فأُنْسِيهِ وكأنه لم يكن . ونسى تمامًا القلق والتساؤل والحيرة والإساءات العابرة ، فبدت جميعًا كالأشباح الوهمية التى تَفْنَى فى ضوء الشمس الساطع » .

والآن ، لننظر إلى مشاعره فى أعقاب الانتصار (الأول) معها : « وتمنى لو استمر ذلك دون توقف ، لو كان الحب ذا سياسة أخرى ، لو أن السعادة لا يجـــرفها تيار الذكريات . لكنه وجد نفسه راقدًا فى حضن الفتور الجليل يرى الأشياء لأول مرّة » !

هنا مفردة جديدة هى « **الفتور** » تدخل عالمه للمرة (الأولى) ، كجزء من قانون أزلى يعمل دون توقف . فبعد الذروة يأتى (الفتور) ، عندئذ ينفك السحر ، ونبصر الواقع من حولنا ، كأنّما نراه لأول مرّة ، ويتعرى أمامنا ما يحدث سافرًا بوضوح ، « **وسرعان ما انتقل الفتور إلى القلق** » حين اكتشف أنه بوجوده معها يرتكب معصية قد تؤدى به إلى النار ، لكنها هدّأت مخاوفه قائلة بحنان : « **عندما تَهَبُ المرأةُ نفسَها فالعلاقة شرعية مباركة !** » . انظر إلى رغبـــته فى موافقتها ، وذلك حين عَقَّبَ الراوى : « **فمال إلى تصديقها بكل قواه ورآها جديرة بالانقياد** » .

وكان الفتى قد « **ثمل بسعادته ، فلم ينتبه لجريان الزمن . فى تلك الغفلة العذبة تلاحقت أيام الصيف لاهثة ، وتسلل الخريف بخطاه الخفيفة** » .

هنا زمن يمضى، قانون صارم سادر فى فعله، أحد قوانين حركة الكون، (ينســـاه) البشر فى غفلة سعادتهم العذبة ، « **ومضت نيران العواطف المتأججة تخبو قليلاً قليلاً ، ويحل محلها حب هادئ موسوم بالاعتدال ، متحرّر من جنون الإفــراط ، مالك لوقت ينفقه فى التعامل مع سائر أركان الحياة** » . أما تعليل هــذا (**التحوّل**) فيرجع إلى قانون آخر تمارسه الحياة بيننا مع أبسط الأشياء ، وإن كــنا لا ننتبه إليه ، وذلك هو (التغيير) ، الذى يبدأ من فعل بسيط حين نغيّــر ملابسنا ، وينتهى بأن يضرب عميقًا بنصله الحاد فى أَخَصّ شئوننا ، « **وغَيَّـــرَ ملابسه الداخلية والخارجية ، وتواصل التغيير فشمل أشياء كثيرة . تسلل التغيير فى خطوات غير مسموعة ، ولولا حساسيته ومخاوفه الدفينة لأفلت منه تماما . وزاد من قلقه أن التغيير ينبثق منه ، من أعماقه ، ففتر حماسه لمجلس الليل الذى لا يَعدُ بجديد** » ، « **هل يمكن أن يُتَّهَمَ هو بسببٍ من الاعتدال بعد الجنون بفتور الحب أو انقلاب العاطفة ؟** » .

عـــندئذ ، لاحت أمامه حياته المجهولة ، « وكان يتذكر حياته الأخرى لأول مرّة منذ أمد غير قصير . أكان أسعد حالاً أم أتعس ؟ أكان أرفع منـــزلة أم أدنى ؟ أكـــان يحترق بغضب الآخرين أم نَعِمَ بسلام دائم ؟ من أى جهة جاء وأى جهة قَصَد ؟ لكنه عَبَرَ ذلك بسرعة وكاد ينسى كل شيء » ؛ وذلك لأننا فى لحظـــات التحوّل والتغيير فقط نستعيد ما مضى من حياتنا ، متلمّسين منه العـــزاء مما نعانيه فى الحاضر . وحين أخبرها عما راوده من أفكار من خلال محاورة معها ، حاولت أن تثنيه فيها عمّا يفعل :

« – ولكنك تَحُومُ حول تساؤلات عقيمة ، وهذا هو الحمق ..

- نطقتِ بالحق !

- لا تكن منافقًا كالآخرين » .

لقـــد أسقطته المرأة دون أن تدرى عن عرشه ، وأطاحت به إلى موقع الـــرعية الذيـــن ينافقونها خشيةَ بطشها . وكان فعلاً قد سقط عن عرشه ، « وبـــات الفتور شغله الشاغل ، فنسى كل مأساة إلا مأساة الحب . هل يفقد هـــذه القوة العجيبة كما فقد الذاكرة ؟ وهل يجرى عليه ما جرى على أزواج نعمـــة الله السابقين ؟! » ، وراحت الأمور تتفاقم ، والعلاقة تتدهور بينهما ، وهـــو يتمسك (بحلم) مستحيل : « ما أكثر الذين ينتظرون على لهف نهايته . ولكـــنه سيخيّب الظنون ويبدع فى مجرى الحوادث ما لم يبدعه أحد ممن سبقه . سيظل الفتى المرموق فى هذه الحارة التى يحترف أهلها الشكوى والعويل ، وتردد أغانيها أنّات الهجر والحرمان » .

عندئذ لاح له نذير (خطر) وشيك ، فبحث أولاً عن صديق يشاوره ، فمضـــى إلى الممرض ، صديقه القديم ، الذى سبق أن (نسيه) أثناء مرضه ،

وحاول أن يستسمحه ، فأجابه الكهل باستياء : « **إنى أعلم متى ينسى أمثالك ومتى يندمون** » .

ثم قابل الطبيب الذى يملك (علمًا ماديًّا) ؛ لعله يجد حلاً لحالته المتردية، فأخبره الرجل بأنه « **الإفراط البعيد عن العقل ، والقلق النفسى .. وأن ما يلزمه هو راحة جسدية ونفسية** » .

هنا أحس الفتى « **كأنه مصير لا مفر منه** » . وعندما أحكم (الحاضر) إحكام أبوابه فى وجهه ، « **انساق بقوة إلى التفكير فى المجهول من حياته ، فقد يجد فيه المأوى إذا افتقد مأواه ، وقد يجد فيه العزاء إذا عز العزاء** » ، وعندئذ اكتشف أن « **هذه الحياة تتسرب من يديه كالماء ، لم تَعُدْ حقيقة ثابتة ، ولكنها حلم تحدق به يقظة الصباح القريب** » .

التفكير فى (الماضى) والبحث عن (ذاكرته) كان الحلّ البديل الباقى أمامه ، فمضى ثانية إلى الطبيب ، فأخبره بأنه مارس « **حياة تشجع على النسيان وتخاف اليقظة** » ، وأن الحل أن يستشير أخصائيًّا ، وأن مشوار العلاج طويل ، ويحتاج إلى (إرادته) فى جميع الأحوال !

وعاد ثانيةً إلى الرجل الوحيد الذى عطف عليه فى محنته ، وهو الممرض مخلوف زينهم ، مُصِرًّا على أن ينال عفوه ، فهبطت حدة العجوز ، وذهبا معًا إلى المقهى ، حيث قال له : « **نهاية ابنى الشهيد معقولة أكثر من نهاية أمثالك ، ولكن لا فائدة من الرأى أو المشورة ، الجميع مصممون على تكرار الأخطاء حتى ولو لم يُداخلهم أدنى شك فى النهاية ، يستوى فى ذلك مَن فَقَدَ ذاكرته ومن لم يفقدها** » !

وحين سأله الكهل عما ينوى أن يفعل ، أجابه بأنه يخشى مَغَبَّةَ الإعلان عن نفسه فى الصحف ، لأنه لا يعرف ماذا يكمن وراء الباب المغلق ، ففتح لــه العجوز الطريق للقاء الرجل الآخر ، الذى يملك (علمًا روحانيًّا) ، لكنه معــتزل فى صبابة الوجد ، وهو الشيخ كافور . وزاراه ، فأمسك يده حينًا ، ثم قال له : **«ستعرف ما تسأل عنه فى حينه بالتمام والكمال»** ولم يَزِدْ حرفًا .

واكتمــلت دورتــه بابتداء دورة جديدة ، حين وجد نعمة الله تجالس شــابًّا لم يَــرَهُ من قبل . **« شــاب فى عزّ أبهة الشباب ، جميل الوجه ، رشيق القامة»** ، فتذكّر ماضيه السعيد ، وحين رأى فرحة الشماتة فى أعين المحيطين **« اقترحت عليه شياطينه حلاً داميًا ، ولكن ضعفه المتصاعد أخجله »** ، ولــمّا أَوَيَا إلى مسكنهما ، أقبل عليها دون تفكير ، فاكتشف أن ضعفه بات عجزًا كاملاً ، فتعلل بمرضه ، لكنها قالت بثقة : **« الحق أنك انتهيت ! »** .

وانظر إلى مشاعره عندئذ : **« سَرَتِ الحقيقة فى ذاته كالسُّم ، فلم يَشُكّ فى أنــه انــتهى ، وأن حياته إلى جوارها توشك أن تنتهى أيضًا »** ، واندهش مــن وجهها (الجديد) الذى يطالعه ، **« كأنمــا لا ماضى له ولا ذكريات »** . وتأمّلْ حوارهما الأخير :

« - شَدَّ ما تغيرتِ يا نعمة الله !

فقالت ببرود :

- لقد تغيرتَ أكثر يا عبد الله !

فتساءل بأسى :

- أينتهى كل شىء كأنْ لم يكن ؟

فقالت بضجر :

– أنت الذى أنهيته ! » .

فى هذا المشهد القصير تكرر فعل « انتهى » – أى (بلغ نهايته) – خمس مـــرات ، وهو ما يؤكد الإلحاح على النهاية ، أى وصول الأمور إلى غايتها وآخـــرها . وانظر إلى تنويعاته المختلفة: انتهيت ، انتهى ، تنتهى ، أينتهى ، وأنهيـــته ، وذلـــك مقابل تكرار فعل (تغيّر) مرتين ، وهو ما يعنى أن العلاقة تبدلت إلى غير ما كانت عليه واختلفت. وتكرار الفعل بذات الشكل يدعم تبادله الاتهام بشكل متساوٍ ، وإن انطلق من ناحية الفتى كتعبير يائس مندهش عـــن المـــدى البعيد الذى بلغه تبدّل العلاقة بينهما من ذروة الهوى إلى وَهْدَة الهجر والتجاهل والنسيان !

و لم يَعُدْ أمام الفتى إلاّ (الرحيل)، بعد أن غُلِّقَت كل الأبواب فى وجهه، وأهمهـــا باب الهوى ، فواصل المسير حتى غَيَّبَهُ المنعطف الأخير (مدخل القبو) – كقبر – عن الحـــارة إلى الأبد !

***

هـــنا تكون (دورة الحياة) قد اكتملت بالنسبة للفتى ، فعند مخرج القبو (الـــرَّحِم / المَنْشَـــأ) وُلد ، وعند نفس المَخْرَج – وقد تحوّل إلى مخرج للقبو – تـــوارى واخـــتفى ، إيماءً بموت محتمل ، وذلك بعد أن مرّ (بدورة الهوى) حين لم ينصت لنصائح مَن سبقوه وانجذب لإغواء المرأة القوى ، فتجرّع الهناء لفترة، وأفـــرط ناشـــدًا المزيد ، وإذا قانون الحياة والكون سادر فى فعله ، والتغيّر هو الحاكم ، بدءًا من ملابسنا ، مرورًا بمشاعرنا ، وانتهاءً بمواسم السَّنَة ، فانقلب الحال ، وأفِلَت الصبوة ، وكان هَجْرٌ ثم فراق أبدى !

ومــن ناحية أخرى ، قد يبدو الهوى وكأنه علاقة مع طاغية قاهرة ، بدا ذلــك حــين أوضــح لهــا خشيته عليها من حقد رعاياها ، فأجابته ساخرة : « لا خوفَ من حقدٍ مصدره العجز .. » ، وفى الوقت الذى نسى فيه ما سمعه عنها بعد أن انضم إلى رِكابها ، ونال نعيمها ، كانت فى (المقابل) دائمة اليقظة ، أو على حدّ تعبيرها : « لستُ غافلةً عن شيء يهمنى أبدًا .. » !

وتــبقى - أيضًــا - تــلك الدورة ، كما (الحياة) ، التى يُولد الإنسان (عــبد الله) عــلى أديمها (الحارة) ، وأمامه طريقان : فمَن اجتذبه بريق الدنيا (نعمــة الله) ، وخضــع لأهوائها ، فقد يغترف فى كَنَفِها السعادة لفترة ، حالمًا وناشدًا أن تدوم إلى الأبد .. لكن قانون الوجود سادر فى فعله ، وكل شيء إلى زوال ، لذلــك ســرعان ما يسوء المآل ويؤوب بخسران مبين . أمّا مَن وَعَى الدرس ، واستفاد من تجارب الآخرين ، فهو على طريق البراءة والنقاء ، ونعم المآل !



ويبقى سؤال أخير ..

لماذا بدأ نجيب محفوظ قصة « أهل الهوى » بالفتى وهو (فاقد للذاكرة)؟

ما مغزى هذا المَلْمَح ، خاصةً حين يبدأ الفتى من منطلق (معنوى) غير مــلموس هو فقدان الذاكرة ، يَؤُول عند نهاية الدورة ، بعد أن لفظته المرأة ، إلى فقدان (مادى) ملموس « **كأنما لا ماضىَ له ولا ذكريات** » ؟

هل يكون فقدان الذاكرة (معادلاً فنيًّا) للانصياع إلى دورة الأهواء ؛ لأنها حين تحكم تصبح (طاغية) تبطش بمن يقع تحت قبضتها إلى الفقدان التام ؟

أم هـــو قـــانون (الـــتغيير والفقد) يحكم حركة الحياة منذ المبتدأ ، بدءًا مـــن أبســـط الأشـــياء مثل تغيير ملابســـنا ، مرورًا بأعمق علاقاتنا ، وانتهاءً إلى حركة الطبيعة من حولنا وتغيّر الفصول فيها ؟

وأى حلّ (مختار) بعد أن نستوعب قانون دورة الأهواء ؟

هل ننساق إلى دوامتها مدفوعين برغباتنا الجامحة ؟

أم نتجنبها ، بالابتعاد تمامًا عن مجال حركتها ، كما نصح المرض الذى يمتلك (خبرات الحياة) صديقَه ؟

أم ننعزل عنها بالانخـــراط فى حياة روحانية كاملة سعـــيًا إلى المعشـــوق الأكبر، كما فعل الشيخ كافور الذى يمتلك (معرفة روحانية) ؟

أم نتعامل معـــها دون إفراط ، كما نصح الطبيب الذى يمتلك (معـــرفة علمية) ؟

والسؤال شائك ، ومطروح ، يلحّ علينا ، بحثًا عن إجابة شافية !

الملحق

صفحات من رواية « ما وراء العشق »

بخط يد نجيب محفوظ

ويحتوى على :

١ - صفحات الافتتاح ، ويظهر فيها الفصل رقم (١) .

٢ - صـــفحات الجزء الذى أبقى عليه نجيب محفوظ من رواية « ما وراء العشـــق » ، مـــن الفصل رقم (١٣) حتى بداية الفصل رقم (٢٢) ، واتخذه أساسًا لعملية (التهذيب) ، ليبدع منه قصة « أهل الهوى » التى نشرها فى مجموعة « رأيت فيما يرى النائم » عام ١٩٨٢ .

٣ - صفحات الفصل الأخير رقم (٥٢) .

ما وراء العشوة

[illegible] التاريخ عشرات الاف سنة،
[illegible] الرجال [illegible] للألوف.
[illegible] الولاة [illegible] قرى جرجا.
[illegible] العالم [illegible] الدم [illegible]
[illegible]
[illegible] بالجامع والكنيسة والكتاتيب والمدرسة
الابتدائية والوحدة الصحية، ومكتبة شبه مستقلة ملحقة بالمدرسة ومفتوحة للواردين طوال
العام منذ أنشأ ذلك كله [illegible] الملك الكبير السيد [illegible] عبد الدائم.. وقبل غيرها من القرى سبقت
إلى [illegible] المياه النقية، والتعامل مع [illegible] والناموس.. عرفت [illegible]
[illegible] الملك الكبير أول ما [illegible] في بيته [illegible] ثم [illegible] وجدها
منتشرة [illegible] الطيب في جميع أنحاء القرية.

بكلمات الأب محمد الضمري [illegible] يقول [illegible] أسرته الصغيرة [illegible]
- [illegible] ...
يقول [illegible] الملك [illegible] في التفتيش [illegible] الأم
- ربما [illegible] من نعم الله...
ويقطع الصبي [illegible] الحكاية [illegible].. ويؤكد الأب
كثيرا...
- لينة [illegible] من الأيام..
[illegible] ثم [illegible]...
- [illegible] القديم.
ويكمل [illegible] الفوائد [illegible]
- هو [illegible].. [illegible]
فتقول الأم..
- لذلك [illegible] وليس [illegible] الحب نعمة...
ولدى مناسبة [illegible] الأب
- عندما قامت الحركة الوطنية [illegible]
والتي أشعلت النيران في الصعيد [illegible]
وقال [illegible]
[illegible]
[illegible] السياسة [illegible]

في تلك الوقت في القاهرة .. ثم جاءت الثورة .. فالتف نشاطه الزائد [illegible] للتفاهم [illegible]

- ويقيد الأجر قائلا

- لقد اعتبرته الثورة .. وتعاطفت كسائر الإقطاعيين ..

- وهو يقول له الأب .. وهو يتكلم وسائله موجود أبداً

- فيصفه له بأنه زفافه!

- فيقول له الأب مرحبا

- لا مجال إلا للكلام الفارغ!

كان [مستقبل] دوره تماما من الثورة .. لم تعامله كسائر الإقطاعيين .. أجل .. لم يأت نفر من تطبيق قانون الإصلاح الزراعي عليه .. بكل أطواره .. ثم لم يعد يملك اليوم .. سوى .. الثلاثة فدادين .. وتلك المزرعة. [illegible] لم يخف على أحد .. [illegible] منذ بداية الأمر عضوا في لجنة الدستور .. ولما شمله قرار العزل السياسي [illegible] مع حبل الترضية .. والسبب .. من أول يوم من الثورة بل أعلن حماسه لفكرة الإصلاح الزراعي .. وأثر ضده .. يطلقون [illegible] .. وشهدت ماثرة السابقة بصدقه وإخلاصه حتى استقبله بجدارة .. وصفته .. الإقطاعي الثوري .. وحاسبته الثورة فلم يجد عنه سلوك مريب .. إلا [illegible] .. وما زال .. من عشاق القيم .. لا يخيفه الفقر أو الجوع أو الرصاص .. فقد كان غنيا .. وكأنه لم يأت خصيصا للثورة أبدا .. وكان أسير القيم ..

ومرة قال الأب ....

- ستفهم يا بني .. هذا الرجل الذي يعم خيره الجميع .. وجد [illegible] الصفو عنده .. [illegible] فقد [illegible] كرمه .. [illegible] وحماسه .. وكأنه أبدا بجرة قلم ..!

ثم .. وهو يرشف البيبسي في استمتاع ....

- لقد انتهى عهد التقشف يا بني .. طالما يعلم ذلك .. لم يعد بحاجة إلى [illegible] الشيخ إبراهيم الجرجاوي [illegible] .. والجرجاوي رجل كسائر الرجال .. ليس أسوأ من غيره وكان لا ينتظر منه خير .. ووضعنا أيدينا على قلوبنا خوفا من الفقر والشيخوخة .. أتدري ماذا فعل؟

وساءلت الرجل عليها .. ثم ما فعل ..

- أجرى علينا معاشا بلا التزام [illegible] .. فيرد [illegible] رجاله [illegible] الدولة في دولتكم .. واستدعى [illegible] .. وقال لهم [illegible] والطبيب والمهندس ..

أفضل الله من فضله .. ولقد [illegible] من رجال قضوا العمر في خدمتي .. والحياة نعمة لم يبق [illegible] إلا .. لنا لنركب الجرائم .. صدقني يا بني .. ما زلنا نعيش بفضله ....

منذ ما [illegible] الدمامية [الأماكن] [illegible] بقدر ما هو [illegible] للخير .. وهو ابن وحيد لم يعرف الغيرة [illegible] .. أتخيله [illegible] .. بعد [illegible] الأربعين .. ويعد [illegible] كافة الوصفات [illegible] القواعد .. جاءت المعجزة .. [illegible] والإرشادات [illegible]

وأمل في مجموعة [illegible] حتى صاحب [illegible] قرأنا جيداً في المدرسة . تحدث [illegible] والاستقلال [illegible]
العصر بالثورة والطموح [illegible] المؤسسين . [illegible] لتقديس العدالة قلبه [illegible] وانتقلت [illegible]
والمستقبلية [illegible] الثورة [illegible] الثورة [illegible] الحياة [illegible] كأنه [illegible]
[illegible] عبد الدائم معتبراً [illegible] شخصية فريدة [illegible] غير مثال ، بل [illegible]
لم [illegible] لا ينفصل [illegible] حتى [illegible] أن تبرح الرجل [illegible] للمنفعة العامة [illegible]
[illegible] منعزل في وسط [illegible] الأعلام [illegible]
[illegible] حديثة [illegible] حتى ذلك [illegible] ولهذا [illegible]
[illegible] فقال [illegible]

- ما هو الا احتجاج [illegible] !

[illegible] اسماعيل

- [illegible]

[illegible] - وكلما انتهت فرصة - [illegible] المعلمين [illegible]
الجمعة . وقد تهيأ له الوقت [illegible] لذلك وكانت [illegible] تجنباً لما يثير الظنون ، [illegible]
في العلاقات [illegible] بينه [illegible] الثورة . مع ذلك فقد ظل [illegible] الخطبة [illegible] الامام
[illegible] إلى [illegible] . كانت
[illegible] بالثورة ، [illegible] . [illegible]
[illegible] و السعادة .

- ٤ -

في [illegible] موقع [illegible] . وبيت
[illegible] مدينة صغيرة خلفية تحت الجرجير والطماطم . [illegible]
[illegible] اسماعيل . [illegible] الفتى والفتاة [illegible]
واحدة [illegible] في المدرسة ، ظل
[illegible] في الذهاب والاياب . [illegible] المصير [illegible]
[illegible] اللون [illegible] .
[illegible] عيناه سوداوان [illegible] وشعر أسود غزير . الزيارة
[illegible] بالنظرات [illegible] عند السلام [illegible] . ذلك
[illegible] في الأحلام . [illegible] في [illegible]

- [illegible]

[illegible] الخدمة . [illegible] كانت [illegible] واقعية . [illegible] متزوجات
في القرية [illegible] بالعقل . [illegible] الطموح [illegible] .
[illegible] العزيمة القوية ، [illegible]

اسماعيل . فلماذا تسائله أهذا أذكى منه؟ . انه ايضا مجتهد ونابغ وطموح وكأنه ينفعل [illegible]
للخلافة . ورغم فطانة حبه له [illegible] جنية عنيفة . لولا [illegible]
عناد [illegible] . انا وهو [illegible] نسبة اليه فهو يعتقد في وحدته [illegible]
أبيه أو أي صدفة يلتقطها من الحياة . فالحب نفسه لا يجود ذكره في ذهنه [illegible]
الجنيه والذهب . لأنه يريد العيش كما [illegible] الجنس واشعل في [illegible]
وقد اهدى اليه قرطا ذهبيا [illegible] فاهدت اليه [illegible] . مقطعة [illegible]
حقا صغيرا من العاج .

وقبيل اعلان الخطوبة وهي بعد مشروع يتناوله [illegible] تقدم على القرف [illegible] بالوحدة [illegible]
تطلب [illegible] . موظف محترم يكبرها بخمسة عشر عاما وقادر على فتح بيت . وكان من [illegible]
فاضل المهند يحظى بموافقة الرجل القلبية [illegible] للدكتور اسماعيل الذي
بدا له [illegible] مجهول المستقبل . وأفضى بخواطره لصديقه وزميله [illegible]
النضري [illegible] وايدها بقوله

- ابنتي وابنك [illegible] في [illegible] وفي ذلك ظلم لها . وخاصة ابنتي [illegible] الدبلوم ..
وانت تعلم ان [illegible] الشباب [illegible] الرجال شبابهم ..

واقتنع [illegible] النضري [illegible] لصديقه [illegible] . فاستدعى اسماعيل وراح
[illegible] ثم قال له

- [illegible] على الأقل [illegible]

وما أدرك اسماعيل [illegible] قال بصوت [illegible]

[illegible]

[illegible]

- ما تصورت [illegible]

وما لبث فاضل المهند ان [illegible] معارضة كذلك . وكانت
[illegible] مستبشرة [illegible] مطمئنة بقراءة الفنجان التي تجيدها . ورغم ان تلك المعارضة
[illegible] والتعقت ينفعل لأنه
[illegible] فاقترن الفعل بصورة على القرف [illegible]
في نفسه شيئا من الكآبة . وتساءل [illegible] الا يجب ان يتزوج اليوم
[illegible] ليس [illegible]
[illegible]
[illegible] .

[illegible] فاضل المهند [illegible]

فاختفت الابتسامة من وجه الرئيس وقال بحذر

... انه امل سيحرم حتمية التاريخ ...

فقال اسماعيل بحماس

- هذا واضح ومعروف

ابدى الاستياء في وجه الشيخ عليم ولكنه آثر الصمت بلباقة . وقال حسني أبو الفدا

- الجميع يحترمونه ..

فقال اسماعيل متأسفا

- باستثناء نفر من شباب قريته ..

- قريته !

- أجل

الشباب غير الواعي ولكنه موقفهم ودائم ما يقال تشهد بحيويتهم ، وأنت يا اسماعيل الى أي نوع تنتمي ؟

فانبرى الشيخ عليم بالاجابة قائلا

- أنتمي نوع والد ما وصى به السيد ربيع ..

- ... ومن يتكلم عن نفسه !؟

فقال اسماعيل في حيرة

- ماذا اقول يا سيدي ؟ .. انى مؤمن بالله والعلم والانسان ..

فقال السيد حسني ابو الفدا

- جميل ، وكلنا الجميع يؤمنون بذلك ، ما علينا ، على أي حال كانت مقابلة غير استفزازية وحسبنا ذلك ..

وضغط على زر الجرس قائلا

- تعال يوم السبت القادم ومعك مسوغات التعيين

حرر أول رسالة لرحاب . أخبرها بأنه استقر ، ولو الى حين ، في مقام سعيد ، وأنه لم يعد بينه وبين الفعل الا أيام ، وأنه لن ينقصه الا جوارها . وطلبا وقتا للكتابة تحت الخيال [illegible] في الريح والخوف . فتاة نادرة ، [illegible] أثاث بيت والمثالية ، موحية دائما بالوفاء والثقة . وعندما استلقى فوق الكنبة في الظلام راح يحلم بمشروع العالم ... ما من شيء الا ويجب خلقه من جديد . ما يجوز لمثله أن يقنع بالعمل والحب والزواج . فقد المثل المتوازن لدرجة لم تعد تحتمل . الأفكار تتلاطم في رأسه وعقبات الحياة اليومية تنهك أعصابه . كل انسان يتكلم بحرارة ويتوثب للصراع . حتى العجوز الطيب عليم النظارة [illegible] تحول الى ناري حال انتقاله الى القاهرة وكان

في الجريدة منذ عشرة ملايين ضحية للمجاعة . هل غاب عن الطبيب منذ بدء الخليقة ؟ ... ألا يمكن أن نصلح ونارا من تستعير مكانا من كواكب أخرى .. أم استحالة هناك في أن تكون المدخر إلا عادة الملعون ؟ ! . هل توجد آثار صالحة لم تكتشف بعد ؟ ! . أم انكمش العدم لعشرمائة عام مثل الرجل المنشورة صورته في صحيفة اليوم ؟ ! . ونام مرهقا بالأحلام وسعيدا ...

واستيقظه الشيخ حليم الطنطاوي فصحبه الى صلاة الفجر . واستأذن عقب الصلاة للذهاب فذهب ووجد نفسه في ساحة الفجر الرطيبة الأولية الحلوة كأنما لحاسة الرجل الذي سجد وجود الشرق تحت قبة سماوية مرصعة بالنجوم . حياة الصانع والمدينة تنفث الندم فترددت في الظلام الناعس ملامحه ، وسرعان ما ذكرته أشباح البيوت العتيقة بالقرية . وتذكر أباه وأمه الوحيدة وعبد الحميد أخاه منذ أحلامه أول الليل بإعادة خلق العالم . وشمله الظلام فغاص به في أحلامه البعيدة . وتطلع إلى البيان فرأى أبعاده مع ضوء المصابيح وكأنه انجذب الى ظلام حارة النكيبة فأقبل بات يهدي الظلام . كأنما يبحث عن شيء في الظلام . فليتساءل نفسه جيدا أنه يتحول من حال الى حال . أنه يمضي نحو الظلام بدافع من جسده لا من روحه كما توهم أول . غابت الذكريات وخف الحنين وتلاشت أصداء التوبة . ماذا يحل به ؟ . أن جسده يحملقه ويثقل بدنه الغار . أنه دم وجسد يزحفان من ظلمة الحارة يلجأ إليه فاضطجع ظلمتها . أنه محموم بشهوة طارئة ، ودخل في الوقت نفسه من نفسه .. ماذا دهاه ؟ . وهل يشعر به ذلك عقب صلاة الفجر ؟ . ثم يبحث في الظلام . وأي قوة تدفعه الى مكان لم تطأه قدماه من قبل ؟ . قال لنفسه " احذر من مرتكب خطيئة تهلكك " . هذه نفس هي تتقدم دون توقف مسلطا في الظلام . ألا يوجد ما هو أقوى من الجسد ؟ . وتوقفه عند مدخل القبو المتكاثف الظلمة . هنا البئر التي ينبع منها الظلام . هنا الظلام يتكلم ويبوح بخباياه في موجات من التنهدات والزفرات المريبة . الجدران تشهر تحت وطأة اللعنات . وتنوح رائحة إنسانية المختلطة بتراب الأرض ، وبغريزته النملة شيء ما لم تره عينه . تسمرت قدماه حتى خيل إليه أن بقية جسده سينفصل عن ساقيه ويندفع وحده . وتلفت حوله في حذر وإذا بقبضة تطوق قفاه وتجذبه الى الداخل . ند عنه صرخة وكان سرعان ما صدت فوق رأسه ضربة طائشة فغاب عن الوجود

ظل ملقى على الأرض غائبا عن الوجود حتى فتح عينيه عند الضحى . ثمة شبه ظلمة ونسيم جبرية . ثمة جدار غريب ضارب للسواد قد من أحجار ضخمة . أين مكانه ؟ ! . ورفع رأسه فشعر بصدره بألم ، فنهض مستندا الى يديه فنظر فيما حوله .. أنه يرى بمشقة وكأنه أدرك أنه في قبو مسقوف ، سقفه - كجدرانه - مقددة من الأحجار الضخمة . وثمة مدخليه مخرجيه . وتساءل ماذا جاء به ؟ .. من هو ؟ . لم يظفر بأي جواب . تحسس موضع الألم فوجد ورما ، وفي الحال ذكره نفسه لأول مرة . أنه عارف تماما . ألا من سؤال يلحق عن هويته ... كيف ومتى حدث ذلك ؟ ... من هو ؟ ... من يكون ... وتساءل [illegible]

تخلى عنه الأمل في أن يلفظ الجثة من قبر ماء . تحسس الماضي والحاضر . كل شيء أحس متقلقلا ... مسرعو ..
وتدق من الرصد حركة . يعصف كأنه يشكو كأنما ظلم لتوه من الأرصفة . تقدم في اتجاه الجثة ، تنشر الـ
رائحة عفنة . سأله رجل بجواره ....
- ماذا لك هنا ؟ ...
رفض منكأة كريه وقال ....
- سيبوك وسيقولوك ، تقتش وتأخذ غيرها .. ..
رفض الى المارة وصوت يجيء من الله يا حسنين !! . لم يكن أن يبقى في موقفه الى الأبد ، تحول ..
في عنده نحو المارة ، الى فراغ هذا .. الى فراغ وظلام يغشاه إياه . كأنه من ينبه هؤلاء
الأحياء الذين يتجاهلونه . توقف عند مدخل القبر ، مد عينيه نحو المارة ، ثمة حياة صاخبة .
أوجه تطل في النوافذ وتختفي ، دكاكين مع الصفيح ، عربات عربات تنقل تذهب وتجيء ، باعة
ينادون ، أناس يتحاكمون ، يتبادلون الجد والهزل ، آخرون يتضاربون ، رجل يجري في نفس
دائم وهو يصرخ ....
- بلا سبب .. يتحاكمون بلا سبب .. ..
الأصوات تتجمع وتتداخل وتفور تحت أشعة الشمس ، حركة جنونية لا معنى لها . وكانت تبعث الخوف
والناس يرددون ومن أن يلقوا عليه نظرة واحدة أو يلمحونه بلا أدنى اكتراث ، إنه شيء !
يحدث أو يلاوم ، إنه لا شيء ، ولن يستطيع أن يبقى في عزلته المرعبة الى الأبد ، إنه في أشد
الحاجة الى أن يدخل في أعين الناس كما يدخلون في عينيه .. أن يبحث من مرة بأي حال وبأي ثمن .
ثم إنه رغم أنه يشعر بعلته وجوعه ، عليه أن يثبت أنه حي ، ولن يتأتى ذلك الا باعترافهم أو عطفهم
ربما يأسون الأمر كله هكذا منذ عمرا وحتى في تلك الحال فلا بد أن يصحو ، واعتاد الألم وقاوم ، تزايد الجوع
والعطش ، وتسربت الى أنفه رائحة طيبة ، عرف مصدرها في صحن طعام مع فوانيس جلست . اليم ..
امرأة تأكل ، جلست المرأة أمام دكانه فردة تتناول فطارها ، مقبلة على الطعام بحيوية وتصميم
منهمك ويبدو فيه ذاهل تعتصر بالماء من قلة حمراء . امرأة هائلة في جسامتها ، قوية مثل المصارع ،
ريانة الوجه كبيرة القسمات ، تعيش مثل الرجال جلبابا وطاقية وفي قدميها الغليظتين مركوب .
مضى يقترب من الدكان مجذوبا برائحة الطعمية حتى وقف على بعد خطوات . لاحظته المرأة فالتفتت
نحوه بعنف تتوقف عن مضغ وهشت بنهره وطرده وتلمس وجهه جذب عينيها باهتمام . تسكن انفعالها
تولت الدهشة . ليس الرجل بوجه شحاذ ، أو متشرد من يأوون الى القبور ، وجه وسيم يرى
ذاهل . ماذا يريد وماذا عراه ؟ .. وتأملت شاعرها أقرب الجزارين ، بياض الدبلة الكبرى
البلدي وحلاوته الجسد الفوال . قال دياسه ....
- ليه عيونا ماكو ضيه ؟ ....
فرفع عينيه فرحلة في سمة من الخرزة التي كان يتلألأ في عرقه بيد تنفتح الـ
الاهتمام ملامحه بعنف وقالت

ـ ولد شاذ .. ادخلوه .. انظروا الى عينيه ..

التالد المعلمة بخشونة

ستتدرّب في مطبخك ..

ليس للأولاد .

ـ ترى هل جوعان ؟ ...

للرجل يا سما

ـ في حلقه شوكة يا معلمة جميلة

الى فضلة حلوة الحسن الطوال وقال

شاب ابن ناس !

عندي فرحة دون ان يمنعه عن العمل

ولد ناس .

الفلاة كبيرة مستديرة بغيرة صبيحة . انه دون العشرين مثل الشاب الغريب وهي تأمره

ذهب ويلتقط وأثقلة من نفسه . فوية ذات ضحكة . وامسك تناول افطارها وهي تنظر في

الشاب الغريب .. قرأت في وجهه الجوع والذهول . شعرت بمراقبة الأعين لها . اعين

الدبس وحلوة الحسن ، وعبيد فرجلة وآخرين من المتسكعين الذين أثار

اهتمامهم .. بدأ الفتى يشعر بالمراقبة وكأنه لا يأبه لها . حتى عبيد وفرجلة لا تحفل

به .. وسألت الشاب وهي تمضغ الطعام وتتمطق

منذ متى ؟ ...

نظر اليها .. الى الطعام والى القلة

بالتحديد .. من تقول من متى ؟

من بين ثلاثة .. ارغفة اعطته رغيفا وملأت له قدح ماء من الالمنيوم فاقبل على الطعام

في نهم غريب .

ـ منذ متى ؟ ... من أين جئت ؟

التهم الرغيف بسرعة .. ولم يدر بماذا يجيب

ماذا يفعل من الاجابة ؟ ....

زاك يديه في يأس . فضحكت المرأة قائلة

لعنة الله على المنزول ...

ـ الكلام يا حلوة الدبس ..

ـ ... من كلمة تعز دما .

قال الطوال ...

الصبي والقرص ... لقد ضربوه ... !

فسألته عبلة كرادة

ـ من ضربك وسرقك ؟

فقال حلومة الجحش

مبروك . سيضعه بعد ذلك ويتذكر كل شيء ..

قالت عبلة كرادة

لم اعرف في حياتي مثلك ابدا

ثم ضوائية الفتى الذي اغراه الاحساس بالارتياح فانه على قرب من دكان الخردة

يتذكر .. والد ضعيف ..

- ١٤ -

ذاع خبره . جاء كثيرون ليشاهدوا الشكل الجديد ذا الوجه المليح والعقل المفقود . ألحت عليه الاسئلة ولا مجيب .. لم يدر من هو ولا من أين جاء ولا الى أين يذهب . وجد من أطعمه ومن تصدق عليه بجلباب قديم .. عرف باسم عبد الله القبو ، من ناحية باعتبار عبد الله اسم من لا اسم له .. ومن ناحية أخرى باعتباره قادما من القبو . ويبدو انه لا يعرف هو من نفسه . تقدمت الايام ولم يسترد عقله . واستخدم في اعمال النظافة ونقل القمامة والمشتروات واستخدمته عبلة كرادة اكثر من الاخرين رغم تذمر المعلم عبدون فرحلة . صار عبد الله القبو من أهل الحارة ...

- ١٥ -

نشأ جيل من جديد على مثال جديد . تم الغد الجديد تحت القبو أو في الخلاء في وقت فراغه ليل سواء بالنهار أو بالليل . القيم لغة جديدة ، لغة الصعاليك والمشردين ، واكتسب فنا جديدة . شبطه علط الغريزة وعندها ، رد الى الوثنية ثم الى العصر الحجري . اقرانه بالقوة في السن ثم يتجاوزون الى الطفولة ، انه من أهل القوة ، سبابه الى البلطجة والعنف ، فاما الحياة كل ... في حالة من جماعات الاعقاب ، مشوه الشرائح والروائح الغريبة ، فتى البلطة نجفة . فقد خط فارقة في الوحل . مجمع البدائية والفوضى حيث يمارس الجنس والعراك في لحظة واحدة . ويبدأ الحوار بالسب واللعنات ، ويجري كل شيء بلا حدود ولا قيود في السر والعلانية .. غلظ قلبه وخشنت سلوكه . وامتلأت نفسه الفارغ بالاوهام والقاذورات .. سيرى ملامح قلبه امام عبلة كرادة نحو . لذة قوية ولذة غنية ولذلك لا تكف نجفة [illegible] والعطف .. وانبرت نجفة تحدثه عن مدفوعة بغيرتها

[illegible] حلومة الجحش ، فقتل زوجها في معركة حوية ، صاحبة دكان الخردة ، يتزوجها لذة تجربة .. وتأسف لفقدها وتفقدها ، هي التي عشيقة عبدون فرحلة وهي في سن أحفادها .. أنفقت قبل ذلك رأى من الحبس اولاد وحلومة الجحش العوال ، كل ... حل جديد .. تنفع .. والعلاقة بين ... شباب .. يصغرها

مثل عبد ربه فرحلة خسارة بالصحة، خسارة لصحة الأصغر، لذلك سيهلك عبد ربه عما قليل ..

فقال ساخراً

- يا تحط مقبولة، حسبي ذلك ..

فبصقت في وجهه وجرت فذاع يطاردها وشياطينه التي تصرخ في وجهه. ورغم ذلك ظلت أقرب الفتيات إلى نفسه كما أنه أقرب الفتيان إلى نفسها. ولم تلبث حدة قالت له كأنما تتكهن بالمستقبل

- الشذوذ أفضل مهنة ..

فقال ساخراً

- لا نستطيع أن نعيش كالأصل الحارة!

فقالت بحدة

- إنهم مثلنا تماماً، يتشاجرون بلا سبب، ويفعلون في السر ما نفعله في العلانية، رأيت كل شيء بعيني .. وإنهم جميعاً تحت إمرة الرجل عبلة لروانه ..

فقال بغيظ

- لا تعامليني بجنانه ..

فصاحت بحدة

- إذا رفعته فعليك السلام، ستموت والدم ينزف من ضلع!

ولعبت الأماني بخياله فتمنى أن يحل محل عبد ربه فرحلة لا عبد عبد ولكنه ليحظى باللقمة الطيبة والأمان.

وعند تنظيفه التقى بسمع كلاماً جديداً، اتضح له فيه أنه غير مرغوب، كان مرة لنفسه أن هؤلاء الشبان مجانين ولصوص، ولسبب يجهله تماماً كانوا يحبون صاحبهم. وإذا انتهى عمل البيت قرفص نوره الفوار ومضى يتابعهم، فخيل إليه مرة أنه زار الفتى في زمن مضى وكأنه فتى كان في الدار، وخيل إليه مرة أخرى أنهم ينظرون إليه بعطف مثل عبلة لروائه. وما يبدو يوماً إلا واحدهم يشير إليه قائلاً

- كان من الممكن أن يكون هذا قوة إيجابية نافعة، محمد عبده أو سيد درويش ..!

فيقف آخر

- انظروا إلى يمينه، ثمة خاتم مغلوبة ..

فقال ثالث

- سرقه ولد شك!

هذا الخاتم الذي أشعل معارك كثيرة تحت القبو كلما طمع أحد أقرانه في استلابه وكانت قوى عنيفة بيمه الدفاع عن نفسه

من الدكان تحت عيني عبلة كرداء السائقين . تصبب عرقاً في يوم حار من ايام الصيف ، وكلما مالت المرأة حوله شم عرقاً نفاذاً مدنساً ، لا يشبه الحس فتلفه من جميع الناس ... وتخرج الاطعمة ريحة . قالت

- افعل شيئاً احسن

تحول نحوها متسائلاً

فقالت بهدوء وسيادة

- تأخر عبدون .. ادخل من هذا الباب الصغير ورص اطارات السيارات القديمة فوق بعضها ..

مضى نحو الباب الصغير المفضي الى المخزن الخلفي للدكان وصوتها يلاحقه قائلاً

- ما دخل لدي نتيجة لمالك ..

المخزن بدا اكبر مما تخيل . شبه مظلم يضاء بمصباح في كوة ، مكتظ بالنفايات الحديدية . مضى يعمل وهو يتوقع امراً آتياً لا ريب فيه . هذا يفرك وداعاً للفتوة أصله . لا ذاكرة لديه عن الحياة المتوقعة . وما لبث ان تناهى اليه صوت الباب وهو يفتح . هي دون شك . فليعكف على عمله غير متأثر بحضورها .

- ماذا جاء بك ؟

تلاشت افكاره بغرابة مفاجئة . هذا الصوت الثاني لم يتوقعه .. التفت وراءه فانتصب القامة فرأى عبدون قبلة يرنو اليه بمقت .

- ماذا جاء بك ؟

فجاء صوت عبلة من الدكان قائلاً

- دعه يساعدك

فقال بجفوة

- لست في حاجة الى مساعدته .

فقالت بصوت غليظ آمر

- دعه يتم عمله ..

اغلق الباب ووقف ينظر الى عبد الله القبو بحنق لم يبارك افعاله . مضى الآخر في عمله دون مبالاة . تمتم عبدون

- هذه هي آخر مرة ..

فقال بهدوء

- الامر امرها ..

فقال الآخر بهياج

- اسمع .. اعتني بحالك .. اياك وان تقترب من الدكان !

- لأنك

انقض عليه عبدون ليكيل له ضربة فوجه له الآخر ضربة في نفس الوقت كمترفقا عصا .. متهوجين . انحنيا معا ليلتقط كل منهما قطعة من الحديد المتراكم . فيرى ان عبد الله كان أسرع من صاحبه فأصابه في سرة صابه صادقة سقط مع اثرها فاقدا صوابه . وقفت شاهرة سلاحه متقبض الوجه من الغضب والعنف مثل حيوان مفترس . وكان لم تعد عنه الآخر حركة . عندئذ دخلت عبلة متسائلة

- ماذا يحدث هنا ؟

- ١٧ -

سكت قضيه ، تتبعه برود قاسي ، تمتم

- هو الذي بدأ

- ماذا فعلت ؟

سألته وهي تتفحص الجسد الملقى بلا حركة

- اراد ان يضربني بالحديد فعاجلته بضربة من حديد

لم يتمالك جسد الثقيل من الانهيار فوق عبدون فترفعت ثم انحنت . رفعت في سرعة فنهضت بصعوبة واضحة وهي تقول

- قتلته يا مجنون ..

تبادلا نظرة طويلة . لم يلح في وجهه انه ادرك خطورة ما فعل . تساءلت

- ما العمل ؟

فأجاب ببلاهة

- لا ادري ..

- اذا عرف الامر هلكت ..

- من ذا يهلكني ؟

- الحكومة ! .. تقطع رقبتك ..

- اراد ان يقتلني ..

- لن يصدقك أحد . يجب اخفاء الجثة والا هلكنا . من جانبي لا تخشى شيئا اذا نفذت بدقة ما اشير به عليك .

ما دمت الح تريد انقاذه وانك لقادرة على كل شيء . قال

- اشيري علي بما تريدين ..

- اريد ان اعرف اولا هل سمعتما من تشاجرتما او تنازعتما امام احد من اهل الحارة ؟

- لم يعرف احد وانا اتلقف الدكاكين بجنون ، لم نتبادل كلمة ولا تحية ..

ـ علم ... يجب اخفاء الجثة

ـ قال في صدره

ـ سندفنه في الخندق هنا..

فنفرت في وجهه بحزم قائلة

ـ كلا .. بعيدا عني .. أريد أن انتقل بك الى مكان لا أفكر فيك عليك اللعنة..

ـ كيف تتخلص منه اذن ؟

تفحصت الجثة والدم ، ويديه وملابسه ، قالت

ـ افعل بدقة ، ليس لدي سواك ، اذهب الآن بهدوء واحتفظ بدمك .. سأنتظرك عند

المساء لتوصل عربة خضرة الى الجبل ، ستكون الجثة تحت الخضرة ومعك فأس ومجرفة ،

ستدفنها بمكان في الخلاء ، هناك تحفر حفرة وتدفنه ....

وبعد حفرها اتفقنا على ذلك ، ولم يفكر بالجريمة ولا بالندم

- ١٨ -

ظل يدفع العربة يشق الظلام . جلست عبلة أمام الدكان تحت ضوء المصباح تتابعه

بلا أفكار وقلبها في الداخل يخفق . سمعت سيارات وهي تسأل عن عبدون ، أين اختفى ؟

وتلعنه بصوت سمعه الكثيرون . وهمست في أذن عبد الله وهو يتسلم العربة...

ـ النجاح أو الهلاك .

عندما غادر المقهى رآه فجأة في الساحة . اقبلت نحوه متسائلة

ـ ماذا تفعل وأين تذهب !

ـ سأعمل بالعربة الى الجبل

ـ ما شأنك أنت وهذا ؟

ـ لم يعد عبدون فكلفتني المرأة بالعمل مكانه الليلة

فتباعدت عنه بدون وداع وقالت ساخرة

ـ انه عمل الحمير والبغال

فتركه يتجه بالعربة بعيدا فابتعدت أكثر وهي تقول

ـ سأذهب معك

فقال بحدة

ـ انتظريني هنا ، لن أغيب طويلا ..

ـ دعني أساعدك

ـ لست في حاجة الى مساعدة ..

واتجه نحو الممر . نفذ وراءه فلم ير الا الظلام . مضت الرحلة بلا عقبات ثم ...

لم يصادفه مخلوق . ولما بدأ العمل بدأ معاديا تماما كالجريمة . ضرب بشدة وأنفه يخلي .

بائحة عودة الأشعة ينبع منه السيل منه وشعرت به الأشباح وضاعف بعنوان
النجوم الداكنة غير ان خاطفا ازعل. تقد خيل اليه - كلاهما عند الملتقى انه سيفهم له
هذا الطاهر ويشم هذه الرائحة وصاحب هذه الأشباح .

-19-

عند الحد الفاصل بين الخلاء والقرافة رأى شبح نخلة وهي تجيل نحوه . انقبض صدره
لو يتوقف عن عبد ربه ويتلفت الى الأبد . سألته قطرانيا

- ماذا كنت تفعل في الخلاء؟
- استقبلت بأسئلة مقصودة ومسائل جيدة
- ماذا بالك؟
- تبعتك خطوة خطوة وانت لا تدري!
- حتى في الخلاء؟
- ماذا فعلت في الخلاء؟
- فعلت ما رأيت ان كنت تبعتني حقا !
- لم أخبرك ، وكأني لم أصدق انك ذهبت الى هناك..
- لم لا!
- لا يذهب في الخلاء الا العفاريت..
- والصعلوك أيضا .. تعرفانك تحملني على مقتلك ..
- لا تغضب ودعني أدفع العربة معك..
- لا أحب ذلك
- دعني أركب العربة ..
- عليك اللعنة ، هل انتظرت هنا طول الوقت؟
- لم أخبرك
- ليس لديك ما تقولينه
- تصور ما تشاء .

تأمره التفكير . هل يذهب جهده سدى؟ . اضطر الى ان يقول بصوت طبيعي
- انتظريني في القبو حتى أرجع العربة الا هنا مبكرا
- رائحتك كالتراب ..

استرد طمأنينته . لو رأت شيئا ما أخفته . قال
- اضطجعت مع الوحدة طلبا للراحة
- وحدك؟
- وحدي طبعا ..

شعرت بخوف بعيد .. لعله الخوف .. انتهى عبد ... فتفقدت الحقيبة ... وتحت
القبر تبحث عن ساعدها بشدة لا سعفا ها وقال .
- انتظري هنا

- ٢٠ -

جلست قبالة كرمة تحتلها وهو بعيد العدبة ، مرتقبة وسألته
- هل شيء على ما يرام ؟
هز رأسه بالايجاب فقالت
- استم
فتساءل ساخراً
- استم ؟
- في المخزن جرى شيء في انتظارك ، ام تصادفك متاعب ؟
- شيء لا اهمية له
فذاب صدودها الظاهر في نظرة قلقة فقال
- نجفة ، تعرفينها ؟
- مالها .. ؟
سردي لها ما حصل فقالت بجفاء ابدله وجهه
- اهذا شيء لا اهمية له ؟ .. انه اسوأ ما سمعت ..
- واضح انك لا تعرف شيئاً ..
- الواضح انك متعلقة بها
- لا اهمية لذلك .
- ربما وضعت حبل المشنقة في عنقك يوما وانت تقول لا اهمية لذلك .
- لم تر شيئاً ..
- أنت ادرى بي ... من الرجل عن قذارة الافق !
دخل المخزن ليغتسل فجلست عن كثب من الباب الموارب وقالت
- لدي الآن خطة ، سأذيع ان عبدون سرقه تقودني وهرب ..
- خطة طيبة
- هو شيء سيتوقف عليه وجع البيت العفريتة ..
- لا تشغلي بالك من ناحيتي
- عليك ان تتعلم لتكشف اسرارها ، ان كان لديك شيء فستهددك فوراً
- في تلك الحال ..
قاطعته

- في تلك الحالة ... تعرفين !
- عندك نقطة اخرى ؟
- طبعا وكانت هي ... سلمت اليك !
- لا أهمية لذلك تحت القبو !

فقالت بغيظ

- انت تجهل ... زوال الثوب عند ... وحبك ؟
- نعم .. انى انتظر متى أجيء !

فلم يرجع الى الدكان مرتديا جلبابه ، بوجه ... مثل اول يوم . واذا به يسألها

- هل أهل ... عبد ربه ؟
- ستجري ... في الدكان وكانت ليس الآن ، سأنفذ الخطة خطوة خطوة كي لا نثير الريبة ..

فرمت اليه نظرة شرهة . بدت قلقة وكانت لم تستطع اخفاء ارتياحها .. سألته

- اذهب الآن الى قبوك ..

فسألها بقوة وجرأة

- متى أحل محلك في البيت ؟

فقالت وهي تدارى ابتسامة

- احذر ان تفسد الطبخة بما فعلت

ولما لم يتحرك قالت بحزم

- العيون حولنا تتجسس علينا بحذر ، اذهب الآن يا نجفة لنعرف سرها ..

سرعان ما عرف ان عبد ربه فرحلة سرعة المعلمة وهرب . لم يكن له في الحارة سوى بيت يختفي في الحجرة أبدية . و ~~...~~ ذهبت حيلة الى القسم لتبلغ شكواها واتخذ التحقيق خطواته المألوفة . وقالت نجفة لعبد الله

- يقولون في الحارة ان السرقة ربما كانت ... ..

فارتعد قلبه وتساءل بحذر

- وكانت لماذا ؟
- يقولون انه شجع من نجرها فاراد الانتقام منه ..

فقال بدهاء

- ربما ، وكانت لم يهرب من الحارة ؟
- انها امرأة خفيفة وشيطانة ..

فاطمأن عبد الله وقال لنفسه انه واضح انها لم تر شيئا . فيما اشتكت معه في محاولة ... نشأت من رغبة زوجها . واقسمت لتنتقمن منه . ... شيوعية الحب

- نجمة القبو كانت تمضي عادة على هذه الزيارات العاصفة. عبد الله يذهب كعادته الى الدكان المجاورة لينظف في هدوء، الخ، ثم يختفي. وربما كانت المرأة تستخدم [illegible] عبيده [illegible] ثم [illegible] تابع [illegible] والانتظار على [illegible]. وكان ينظف الدكان متظاهرا بالاستغراق في عمله [illegible] عبلة [illegible] الدبس [illegible].
قالت عبلة

- ما رأيك في أن استخدم هذا الولد؟

فقال الرجل بحزم

- لكنه من رسم قدر لا خلاص له

- لا شك انه واحد من أهل فيها

- لكنه نسي أهله بسبب مرضه ولا يتذكر اليوم من اي تشرد آخر..

- استطيع ان اراقبه واستطيع ان أهذبه..

- المراقبة ممكنة ولكن كيف تهذيبه؟

- هل يعجز امام الزاوية عن تهذيبه اذا تعهده يوما بعد يوم؟

فضحك الحاج قائلا

- أنت!

فضحكت ضحكة فاجرة وقالت

- ولم لا؟ ولكن هذا هو السبيل الوحيد لامكان التعامل معه..

فضحك الدبس مرة اخرى وقال

- أن تعتمدي على تهذيب امام الزاوية له هو اعجب ما يخطر على البال..

هكذا الحق عبد الله القبو بالعمل في الدكان، وهكذا بدأ التربية من جديد... وقررت ان يحيل من الدكان [illegible] ايضا لابعاده عن القبو وأهله. واخذ يتحسن في مظهره وصحته. قررت كذلك ان تثبت شخصيته الجديدة [illegible] بتحسينه في الصحة وتطويره. واستخراج بطاقة شخصية له. ولم يغب مغزى التعامل به عن أحد، ولم يغب عن عبد الله بصفة خاصة ولذلك كان يسأل كثيرا

- متى أذهب الى البيت؟

أصبح يعالج بطريقته البدائية الخاصة، متشبثا الى حرصه عليه وكأنه لم يفقه لصبرها الطويل معنى. ومرة عند القيلولة حاول ان يشدها بالقوة الى المخزن. لم تغضب. ولم تسء دائما برغباته الجامحة وكانت تصر مع تفاوتها. قال لها متمردا بنبرات شهوانية

- لقد نسيت عبد ربه تماما

- هذا من حسن حظك

- لماذا ترفضين؟

فقالت وهي تنوء بنظرة الدهشة

- أريد الحلال معك
- الحلال؟
- الزواج ..
- افعلي ما بدا لك ولكنه أسرع ..

واسترد السمع إلى ما دار بشأن ذلك بينك وبين صاحبه الدابة . فتنفس الرجل

- الزواج يا عبلة؟
- ولم؟! إنه أصل كريم ..
- ولكنه الزواج؟
- ألا ترى أنه قد يشفي ما بك من علة؟!
- ولكنه لم يجرب بعد
- ألم أره لا يعرف شيئا من الخوف!

فتمتم الكاهن ساخرا

- أعوذ بالله من الحب

فتساءلت بحدة

- من المجرب في حارتنا؟
- وكانهم على الأقل يعرفون ما يفعلونه ..

وتم الزواج مثيرا دهشة شاملة . وكان عبد الله الشبور رب البيت وسيد الدكان . ارتوت رغباته الأولية من الجنس والغذاء والكساء والمأوى . ورأى في شخصه عبلة الناقة وثراء ودودا لم تخطر له في خيال . امرأة تحب الحياة حقا وتحب المعيشة الطيبة . في الدكان تبدو رجلا قويا بكل معنى الكلمة أما في الدار فتتجلى عن امرأة حالمة رقيقة شرهة مفتونة بلذائذ الحياة سرعان ما أدرك عبد الله أنها تحبه أضعاف حبه لها ولكنه لم يخف عنه أنه شيء جديد ، جديد في الغزل والسمر والرائحة وفي كلمات السهرة الحلوة . وأنه رغم قوته ضعيفة في ما يحتاج إليه . أما ما لم يهضمه فلك حرصها على تدينه! . قالت له مرة متذمرة

- إنك لا تفعل شيئا ما تفاتحني بفعله ..

فقالت بحيرة

- إني امرأة أما أنت فرجل!

فهز منكبيه استهانة فقالت

- إني أخاف عليك
- إنك لا تعرفين الخوف ..
- أنت لا تعرفني ، لقد قلت والله ستر عليك الجلال!

- ولكن لا تسمعين الشباب في المقهى!

- .. إنهم شياطين، لا تستشهد بهم ..

قال لنفسه إن الحياة طيبة وكانت لا تخلو من قلق. حافلة باللذات وكانت أصوات عالية متقاربة

- ** -

رغم السيادة الظاهرة فالقيود تكبل يديه وقدميه. إنه ممنوع من مغادرة الحارة، ممنوع من الاقتراب من المقهى، من أحيانا إلى التسلل تحت القبو في الظلام. ويلح بحجة أحيانا عند مدخل القبو وكانت لا تقترب خطوة خوفا من المرأة الأولى. يحاولون إقناعه بأن حياته بالسابقين بين الصعاليك كانت نجسة ولكن عليه أن يتخلص لكنه ما زال مترددا.

..

وذات ضحى وقف غير بعيد من الدكان يشرف على شحن عربة نقل. لمح شيخا عجوزا يقف بين الكتل دكان الغلال والأولاد، وخيل إليه أنه لا يحول عنه عينيه. ولما تحركت العربة اقترب الشيخ منه، نظر إليه باهتمام وقال وهمس

- أستاذ إسماعيل!

فرماه بنظرة إنكار متسائلا

- أتوجه خطابك إلي أنا؟

- أجل، ألم تعرفني؟

فهز رأسه نفيا فهمس الشيخ في كآبة وحزن

- الشيخ حليم القنطاوي إمام مسجد الزيني، ألا تتذكره؟

فقال عبد الله بضيق

- لم أرك، ولم أعرفك

- لا حول ولا قوة إلا بالله، بيتك خان جعفر، أمك الربيعية، والسيد ربيع عبد الدائم، أستاذ أصحابك فاضل المهندس، ألا يعني ذلك شيئا لك؟

سرعان ما قدمت عجلة كودان في جلباب الغضاضة، وطاقية وعمقوا إلى الدكان فجلسوا مع ثلاثة مقاعد خشبية، ومضت الشيخ بنظرة قوية بقية الليل منه بأنني ما تستطيع وسألته بحرود

- من أنت؟

- حليم القنطاوي إمام مسجد الزيني ..

- ماذا جاء بك إلى هنا؟

- الشيخ نفسه إمام زاوية سامرف منذ ساعة تتطرق الحديث إلى شاب غائب عن وجوده يلتقفه عبادي الدين، ومن وصفه له تذكرت مفقودا لنا تعبنا نحن والشرطة في البحث عنه

لنفسه انه لا يجوز أن يشوب سروره أسف من أي نوع كان. لقد كان يسعد في مجالسه محدودة.
وإذا سئل عن متوقع من الأمل الفني يكتفي بالصمت ونظرها في العلو. تختلف عن تيسير العمل والنظام
والترتيب. وثمة قدرة للقراءة والادراك والتجربة. وتحمل وظيفته سيكون امينا لمكتبة كبيرة. سيجد
فراغا بين القراءة والتلاوة. فيتزود فيه بالمعرفة العامة أو الخاصة إذا توفر الاكتساب.
الا كلية من الالتفاتات. لابد أن ينفع ما تبقى منه / شيئا فشيئا بالعمل وأن يتغير اهتمامه.
وأن يكبر عن انفعاله وخطاياه. ليتأكد له في السعيد نفسه قدرة / وفي حسابه قدرة أخرى في
شتاء للجدية والعزبة والفضيلة. حتى عملة ونخبة تحليله بتصميم جبار. ولن اختلف الهدف.
لقد ملأته النشوة فتلقى من عبير الحياة إلهاما صافيا.

- ٥٢ -

بدأ العمل من صباح اليوم التالي وعقب تناول الإفطار مباشرة. أدخله الشيخ ابراهيم
الجحاوي حجرة القراءة حيث الترابيزة كاملة بنظام منضدة وبين يديه خط في التسجيل. و
قال الشيخ
- قراءة الصباح شعر عربي وأجنبي
انتظر حتى سمع رنين جرس قصير فشرع في القراءة. قرأ من الثامنة حتى العاشرة ثم
من الجرس مرة أخرى ليأذن عن القراءة. علم انه سيعود الى القراءة في الثانية عشرة. و
لتقضي الساعتين بين المكتبة والحديقة. وفي تمام الثانية عشرة رجع الى مجلسه ليقرأ كتابا بالانجليزية
عن العلم ومشكلات العالم المعاصر. وظل يقرأ حتى الثانية. تناول الغداء مع الشيخ
ابراهيم. وفي أثناء ذلك سأله الشيخ
- كيف وجدت العمل؟
فأجاب بحماس
- غاية في الفائدة والمتعة، أرجو أن أحظى برضاه
- اعتقد أنه راض ..
- مثله جدير بأن يؤلف الكتب القيمة
فقال الشيخ
- كان دائما ممن يؤثرون العمل ولكنه كتب يومياته او مذكراته
- ألا يفكر في نشرها؟
- سوف تنشر ولكن بعد عمر طويل ..
- أطال الله بقاءه ..
فقال وهو يغمز بحاجبه بصابر / مالك
- له قدرة عجيبة على فهم الناس من أصواتهم با
فخفق قلب اسماعيل وتمتم
- الصوت! .. لم اسمع عن ذلك من قبل ..

- رأيته في المنام الماضي ... انه في الحديقة بالفعل ... الشيخ ... قال يا ابني
هذه هي قال إن منزله ... بعد العصر..

قال اسماعيل يداري ارتباكه

- يا لها من قدرة عجيبة

- على افندي، القاضي السابق رحمه الله، [illegible] قبل أسبوع من موته!

ازداد قلبه انقباضا. ولكنه تمالك نفسه. قال إنه لم يكن يؤمن بالشيء، ورجا [illegible] قد
تقبل [illegible] وكان في ... يعلم الأمال. لمن يفعل الخير في نفسه.

* *

عند الساعة السادسة ... الشيخ الاجرة القراءة وهو يقول

- الساعة الاخيرة للقراءة، وكانت قد قرأت قبل ذلك شيئا من التوراة او الانجيل او كتب
اخرى لا اعرف اسماءها..

* *

وانتهى من عمله في الثامنة تماما. تناول عشاءه على مائدة الشيخ ابراهيم. في منتصف التاسعة
غادرا البيت الى الليل الجاثم. امتطى الشيخ حماره وسار اسماعيل الى جانبه. السماء مرصعة
بالنجوم وفي الجو نسمة رقيقة عبقة بشذا الزهور والنباتات. قال اسماعيل

- اني مدين لك بفضل كبير

فأجابه باقتضاب

- الفضل لله وحده

تردد اسماعيل ثم سأل

- ترى ماذا وجد في صدري؟

فضحك الشيخ وتساءل

- هل نسيت ما كنت [illegible]؟

- ليطمئن قلبي!

وصمت الرجل فقلده اسماعيل واذا به يقول

- فهمت السيد خليل ... فلم اشهده غاضبا قط!

ظل اسماعيل مشغولا بامر ذاته فلم يعلق. والظاهر ان الشيخ [illegible] ما يجول في فكره فقال

- أمرني ان ازودك باسم النبات لغرفته المنيرة!

فانتفض الى في صدر اسماعيل وتساءل

- ألا يعني هذا انه يرى ان استمر في عملي؟

فتمتم الشيخ ابراهيم

- لم يزد عما قلت حرفا

وعند ملتقى الطريق افترقا.



وتساءل ، وهو يميل نحو القوية ، ماذا يخاف ؟ .. لم يعد يملك ما يخاف عليه .. وتقلب في الضيق .. لم
يعد يملك انه يحلم .. انه يبني كل شيء .. انه خفيف الوزن .. ولديه بسمة .. وعند اول منعطف للفجر
صمت النبي
قدمه القادم ؟
فاجاب بصوت ثابت النبرة
اسماعيل محمد الصبري

١٢

المحتويات

كتب صدرت للمؤلف

أولاً : فى النقد الأدبى

١- جارسيا ماركيز وأفول الدكتاتورية	الهيئة المصرية العامة للكتاب	١٩٨٨
٢ – دراسات أدبية فى القصة والرواية	الهيئة العامة للثقافة الجماهيرية	١٩٨٩
٣ – يوسف إدريس : الصراع والمواجهة	الهيئة العامة للثقافة الجماهيرية	١٩٩١
	(طبعة ثانية– مكتبة الوفاء بالإسكندرية)	١٩٩٩
٤ – الإبداع الأدبى : المصادر والمخاطر	الهيئة المصرية العامة للكتاب	١٩٩٥
	(طبعة ثانية – مكتبة الأسرة)	١٩٩٧
٥ – فتحى غانم : الحياة والإبداع	الهيئة العامة للثقافة الجماهيرية	١٩٩٥
	(طبعة ثانية عن الهيئة العامة للثقافة الجماهيرية)	١٩٩٩
٦ – رحلة الموت فى أدب نجيب محفوظ	الهيئة العامة للثقافة الجماهيرية	١٩٩٧
٧ – نجيب محفوظ : سيرة ذاتية وأدبية	الدار المصرية اللبنانية	١٩٩٧
٨ – مفهوم السلطة والدين فى تجربة فتحى غانم الإبداعية	مركز الإنماء الحضارى – سوريا	١٩٩٩
٩ – المثقف العربى المغترب	الدار المصرية اللبنانية	١٩٩٩

ثانيًا : فى الرواية

١ – الهجرة نحو المدن القديمة	المجلس الأعلى للثقافة	١٩٨٤
٢ – المشـــروع	دار الشئون الثقافية – بغداد	١٩٨٧

٣ – مذكرات حكمت فهمى — دار الحرية — ١٩٩٠

٤ – عين النمـــس — دار الإنماء الحضارى – حلب — ١٩٩٧

٥ – عصافير صغيرة زرقاء — دار شـــرقيات — ٢٠٠٠

ثالثا : فى القصة القصيرة

١ – قطار الحادية عشرة — دار المعارف — ١٩٨٣

٢ – لو تظهر الشمس — الهيئة المصرية العامة للكتاب — ١٩٨٥

الأستاذ حسين عيد .
تحية لجهودك المستمرة في
دراسة أعمالي وأمنيتي بعد
طبعها أن يتاح لي الاطلاع عليها
بفضل بعض الأصدقاء الذين
يقرأون لي ما

نجيب محفوظ
٢/١/٢٠٠١

تصميم: محمد حجي

الدار المصرية اللبنانية

٩,٠٠ ج